سلسلة قصص قصيرة (19)

عوالمُ أخرى

18 قصة قصيرة

جمال الجزيري

حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني

طبعة أولى

أغسطس 2015

سلسلة قصص قصيرة (19)

سلسلة تصدر عن حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني

المؤلف: جمال الجزيري

العنوان: عوالم أخرى: 18 قصة قصيرة

التصنيف: قصص قصيرة [فن السرد، أدب عربي معاصر]

الطبعة الأولى: أغسطس 2015

تصميم الغلاف: المبدع محمود الرجبي

تصميم الكتاب: د. جمال الجزيري

الناشر: حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني

دار نشر إلكترونية مجانية لا تهدف للربح

للمراسلة لنشر أعمالكم في السلاسل المختلفة التي تصدرها حمارتك العرجا، الرجاء تقديم طلب على موقع الدار:

http://homartkelarja.wix.com/homartk

https://www.facebook.com/Hemartakalarja

/https://www.facebook.com/groups/Hemartak.Alarja

وإرسال الملف وفقا لشروط النشر على إيميل الدار باسم د. جمال الجزيري أو على إيميله الخاص:

elgezeery@gmail.com

hemartak@gmail.com

إشارة

كُتبتْ قصص هذه المجموعة في الفترة ما بين 10/25/ 2008 إلى 2015/3/25

شُغلٌ

يرافقني ليل نهار. أطعمه من روحي، بيد تعشق البناء بالقلم وغير القلم. أطفئ النور. ينام على ظهره بجانبي. يشبك يديه تحت رأسه ويشاركني النظر نحو السقف في الظلام. يبادرني بالأسئلة، وأرد عليه بأسئلة تفرخ الأسئلة في أسئلته. يلحُّ كعادته:

- أين الظلال الأخرى؟
- هل وجدنا الأجساد الأخرى حتى نعثر على ظلالها؟
- يبدو أنك بدأت...
- أقدّر وحدتَكَ.
- وأقدّر أسئلتك
- ولكن أين الظلال الأخرى؟
- أستشتغلني؟

ضحك ضحكة استيقظتْ عليها زوجتي ونقرت بإصبعها على الباب لتنبيهي. لا تريد أن تدخل الغرفة في هذا الوقت، فتقول دوما:

- أخاف منك عندما أجدك تكلم نفسك بالليل أو تستمع لما قمتَ بتسجيله على الهاتف. أحس فيك بأنك شخص أخر غير زوجي، فأنت تتقمّص شخصيات قصصك ورواياتك. أعرف أنك تحب التقمّص، ولكن لا أفهم ما تقوله لي: "التقمّص يدخلني في عوالم أخرى. أستطيع أن أضع نفسي مكان أي كائن أو حتى جماد وأتكلم بلسانه". لا أفهم ولا أحب التقمّص إلا في الأفلام والمسلسلات والمسرحيات، على الأقل أعرف أنه فيها تمثيل.

سكتَ فجأة هامسا لي:

- أنا ابن ليل.
- هههههههههههههههههه

كتمتُ ضحكتي كل لا يستيقظ أطفالي أيضا وأُقلق نومَهم ولديهم مدرسة يذهبون إليها في الصباح. وهمستُ في أذنه:

- أنت ابن ليل. أنا ابن نهار. ونهاري ليس مزعجا في حد ذاته، فأنزعج من أنني ابن ليل أيضا ولست ابن نهار فقط. أبناء النهار يدورون في الساقية وأنا بينهم من الدائرين. وتأتي أنت لترفع الغمامة من على جسدي. ما أقساك! أدرك أنك وحيد. لكن رغبتك في التآخي، في الوجود المشترك، لا تعطيك الحق في أن تعرّيني هكذا!!

لم أشعر بغيابه إلا عندما سمعت صوته من خلف النافذة المغلقة يقول لي:

- ها أنا سترتُكَ. أرني كيف ستجد آخَرِيكَ؟ كنتُ لك آخرَ! كنتُ لك أنا! كنتُ لك إنَّا! أعرف أنك تقول: "نحن وليس إنَّا". لكنني جعلتُكَ معي مبتدءا مؤكَّدًا يا صديقي.

لا أعرف إن كان كلامه أم افتقاده هو الذي جعلني أحس بالعري بالرغم من أنه تركني، بالرغم من أنه سترني. تركني ابنَ ليلٍ ولم أعد قادرا على أن أعود ابن نهار لنصف اليوم. أين هو؟ أين الآخرون؟ من أنا؟ لم أحتمل نفسي ولم أستطع أن أرجع إليّ، وكأنّ التقمُّصُ تقمُّصات، فأسرعتُ لأأتنس بزوجتي وأعود إليّ وإليها وإلينا دون أن أحتاج إلى آخرين غير الآخرين.

26 ديسمبر 2014

صديقُ لوحةٍ

تميلُ برأسها كأنها تتكئُ على جدار الزمنِ. شَعْرُها أحراشُ حقولٍ بريَّةٍ. تنظرُ بزاوية إلى نقطة بعيدة لا تظهرُ في مساحة اللوحةِ. لا أدري لماذا أتوقف أمامها كلما رأيتُها؟ هل تُذكِّرُني بأحد واللوحةُ رسمتْها فنانةٌ من بلد غريبٍ؟! هل تتحاشى النظرَ إليّ؟ ها تعاتبني؟ هل تريد أن توصل لي رسالة ما لا تستطيع ذاكرتي أن تستحضرها؟

الدبُّوسُ الذي يختبئُ في شَعرِها يبدو لي كأنه سلاح يحذِّرني من شيء ما. صورتُها تشغلُ كل واجهة اللوحة ولا تترك مساحةً لأحد، فكيفَ أتصرَّفُ إذا صالحتْني ذاكرتي؟ كيف أُفسِحُ لي مكانًا؟ هل أنا الذي دفعتُها – كبرياءً أو تجاهلا أو جهلا أو سوءَ فهمٍ – لتحتلَّ واجهةَ اللوحة وتنكسرَ أو تشرُدَ أو تخلدَ للتأمُّلِ هكذا؟

ما خلفها ضبابٌ وشبهُ عتمةٍ. هل أنا هناك؟ هل أنا معتمٌ أم أن العتمةَ تلفُّني؟ أم أن ذاكرتي ضبابٌ وخطواتي لامبالاة؟ أحسُّ بأنَّ رأسينِ يتقارعان؟ هل أنا الذي أستعملُ

"يتقارعان" – وأنا الذي ربما أنظر إلى هذا الفعل على أنه مهجور – أم أن المساحة بين رأسي وصورتها على جهاز الكمبيوتر بصفحة صديقي الغاضب أشواكٌ وأسلحةٌ متخفِّيَةٌ؟ هل لوجود اللوحة على صفحة صاحبي الذي يخاصمني ولا أعرف لماذا علاقةٌ بهذه الأشواك؟ دخلتُ على صفحته ووجدتُ أنه حذفني من قائمة أصدقائه. هل هذه القائمة مثل تلك القائمة التي شطبتْ منها الشخصية أسماء ورفعت أسماءً وأنزلتْ أسماءً وفي النهاية دعت الله بالتوفيق للجميع في ومضة قصصية لي؟ هل الأشواك ناتجة عن أنني لا أجد الوقتَ الكافي لقراءة اللوحة؟ هل هناك دورٌ لزوجتي التي تناديني لأشهد على ابننا الذي يعاندها في المذاكرة ولا يركز إلا في اللعب على الهاتف المحمول؟ هل هناك دور لابنتي التي تذكّرتْ أن عندها واجبَ لغةٍ فرنسية قبل موعد نومها بدقائق وعليَّ أن أتركَ اللوحةَ وأنهض لأساعدها في مذاكرتها؟

بجانب اللوحة على اليسار، رجل بنظارة سوداء وينظر بتجهم للأمام ويحتفظ بخلفية سوداء لصورته. يكتب تحت صورته أنه إنسان "كوووول" وكأن السوادَ انسجامٌ وانبساطٌ وشبابٌ ورَوْشَنَةٌ!

أدركُ أن اللوحة عند تكبيرها تظهر على اليسار واليمن روابط صفحات أخرى واقتراحات من الفيسبوك. لكنني أحسستُ بأنه المرأة في اللوحة تنظر إليه وعلى شفتيها ابتسامة مُرَّةٌ وكأنها تسخر منه أو تنعي جهله أو تلعن سوداويته. ويضع الفيسبوك رابطا تحت صورته بعنوان "بطولة". أي بطولة في هذا والنظرة تشملهما معا: صاحب النظارة السوداء وصفحة البطولة المزعومة؟ هل البطولة تكمن في أن أترك اللوحة وأنصرف للمشاغل التي تناديني؟ هل تكمن في أن أواصل تأمل اللوحة وأترك ما يناديني؟ هل تكمن في القصة التي أكتبها الآن أمامها وأقتطع فيها مساحة للتأمل والأسئلة الفائتة؟

أين أنا؟ هل يدل كل ذلك على اللوحة؟ أم أنها عناصر تساهم في تشتيتي وابتعادي عن اللوحة وعن النظرات الصامتة المتسائلة المتَّهمَة التي تسرح في المدى؟ ما الذي تنظر إليه هذه المرأة التي في اللوحة يا ترى؟ وما الذي يجعلها تتجاهل أسئلتي تماما هكذا؟ هل هي لحظةٌ هاربةٌ؟ هل تتأمل الفراغ الذي يحيط بها وكأنها تنظرُ من شُرفة ما في سجن بعيد؟ ولا أعرف لماذا كتبتُ كلمة "سجن" في البداية على أنها "شجن"! أو حتى من شرفة بيت لا يحيط به أي شيء سوى رمال مترامية أكادُ أراها بالرغم من أنها لا تظهر في اللوحة؟

أرسلتُ رسالةً لصديقي ولم يرد عليها مع أنني دخلتُ عامدا على الفيس من خلال هاتفي ووجدتُ أنه موجود على الانترنت. سألتُه لماذا يتجاهل الرسالة؟ هل هناك شيء حدث بيننا ولا أعرفه جعله يغضب مني ويُبعِدُ رسالته أو ردَّه عني هكذا؟ حاولتُ أن أعصرَ ذاكرتي. لم أستطع التوصُّل إلى شيء من جانبي يكون قد نغَّصَ صداقتَنا. هل استمعَ إلى

لسانِ واشٍ وأخذ كلامَه على أنه حقيقة؟ لابد أنهم "دخلاء في المنتصف" كما أسميتُهم من قبل في ومضة قصصية أو قصيدة لي، لا أذكر على وجه الدقة، وفي الغالب ومضة، وإلا لماذا هذا الصمتُ وكل هذه النظرات/ الكلمات التي تهدف للابتعاد في اللوحة؟ ها هي زوجتي وجدتني أتأمل اللوحة، وما إن رآها أطفالي تعاتبني بمزاح حتى التفوا حولي وحاولوا إخراجي من تأمُّلِها. قلتُ لزوجتي:

- هي لوحة تكتبني في قصة.

قالت:

- تكتبُك؟ صورةٌ تكتُبُكَ؟ إذن أنا سأطبُخُكَ وأُذاكرُكَ مع العيال! ههههههههههههههههههههه

ضحكتُ لملاحظتها الذكية وقلتُ لها:

- ولماذا التعبُ؟ أنا أكتبُ عنها قصة.

ردَّتْ على الفور:

- وهل تعرفها؟

وقبلَ أن أجيبها بأنني لا أعرفها، انصرفتْ من غرفة المكتب ضاحكة وتركتْ أطفالي يمارسون تشتيتَهم لي أو محاولتهم إخراجي من أمام اللوحة والذهاب بي إلى زوجتي.

أنا شخصيا لا أعرف كيف أُخرِجُ نفسي من أثر هذه اللوحة التي تنتمي لبد بعيد ولا أعرف شيئا عمّن رسمتها سوى اسمها الذي لا أذكر كيف يُنطَقُ أصلا، ولكنها تركتْ فيها كل هذه الانفعالات التي تنقلها اللوحة بدورها إلى مَنْ ينظرُ إليها.

أصدر هاتفي صوتَ إشعار بوصول رسالة جديدة على صفحتي على الفيسبوك. فتحتُ الصفحة من على جهاز الكمبيوتر، وجدتُها رسالة لصديقي يقول فيها:

- لا والله يا صديقي لا أحمل لك الا كل المودة والمحبة وأنت تعرف ذلك جيدا، إنما الحياة ضيقة جدا وثمة أمور غير مرضية نمر بها في مصر، أما فيما يتعلق بك فأنت أكثر من صديق وأخ ومبدع كبير أعتز به كثيرا وقد انتظرت نهار اليوم مكالمتك التي لم تاتِ

بعدما أخبرني شقيقك الخلوق إنك ستهاتفني. على أية حال، أنا دائما معك. اطلبْ ما تبغيه تجدني بين يديك. كن دوما بخير يا صديقي.

فرحتُ كثيرا برسالته وكأنها جاءت لي بالحياة كاملة بالرغم من نبرة الأسى عن الأحوال في بلدي وذلك الضيق الذي يخنق صديقي ويخنق أهلي بالتأكيد. وقبل أن أبدأ في الرد على رسالته شعرتُ بأنني رأيتُ التي في اللوحة تحرّك رأسَها وتنظر لي بابتسامة جانبية ثُمّ تعيد رأسها مرة أخرى إلى المدى الذي لا أراه.

25-31 أكتوبر 2014

يتدلَّى من مشنقةِ الحرفِ

لحظةُ ضياعٍ. رأسي مُشَتَّتَةٌ كأنَّها لا تعرفُ الأبجديةَ ولا تستطيعُ أن تفهمَ لغةَ العالَم من حولها. تقفُ الحروفُ على عَتَبتي خرساءَ كأنَّ العتبةَ حاجزٌ وكأنَّني أَصَمُّ لا ألتقطُ صوتًا ولا يناديني النسيمُ. أحتارُ: هل قصةٌ؟ أم قصيدةٌ؟ أم أنني واقفٌ في مهبِّ الريحِ أعانقُ كُلَّ الأبجدياتِ فتضجُّ رأسي وتزدحمُ بي، وبالعالم الذي يدخُلُني، فلا يتركُ لي الزحامُ صوتًا، ولا أستطيع أن أصافحَ الحروفَ على مطلعِ النصِّ أو مطلعِ النومِ أو مطلعِ الحياةِ؟ ما الذي يَسْكُنُني؟ ما الذي يُسْكِنُني؟ ما الذي يُسَكِّنُني هكذا وأنا الذي تتراقصُ الأبجديات على لساني وعلى أصابعي وعلى شاشة حاسبي وعلى جهاز التسجيل بهاتفي؟ فأجدني صامتًا الآن.

دَعْكَ من كلامي هذا، فكلُّ هذا الكلامِ يحاول أن يستقرئ لغة الصمتِ، أن يُمسِكَ بالصمتِ الذي يجثمُ على رأسي ليعبِّرَ عنه بكلماتٍ لا تستطيعُ أن تلتقطَ ذرَّةً من صمتِه. صمتُ الصمتِ أم كلامُ الصمتِ أم صمتُ الكلامِ؟ لا أدري

ولا أعرف. كلُّ ما أبتغيه الآنَ أن أخبطَ رأسي في حائطٍ ليستَلَّ الذكرياتِ ويستلَّ التكلُّساتِ التي تؤرِّقني. هل أنا مُسافرٌ؟ أم أنني راحلٌ؟ أم أنني قادمٌ؟ أم أنني "لائصٌ" وسط كلِّ هذا الضجيجِ وهذا الزحامِ وتلك الأعمالِ التي تثقِلُني وأبتهجُ بها، تلتهمُ وقتي وأُقَدِّمُ لها نفسي قُرْبَانًا؟

من أنا؟ ومن الذي يتكلَّمُ الآنَ؟ وأي صوتٍ هو؟ ضائعٌ أم حاضرٌ؟ ومن الذي ينظرُ لي على أنني صامتٌ؟ ولماذا أنظرُ لرأسي هكذا؟ ولماذا هي تعاندني هكذا؟ تسلُبُني النومَ وتسلبني اليقظةَ وتُلقي بي على سريرٍ يضيقُ بي؟ هل أقفُ هنا؟ أم أتركُ الكلامَ مفتوحًا؟ أم أن هذا الكلامَ بلا معنى، بلا جدوى؟ فمازالتْ رأسي مُسَطَّحَةً، ومازلتُ أثرثرُ على حوافِ النصِّ كأنني اللاشيء وكأن النصَّ متعالٍ أو يرسفُ في عليائه: يرسفُ في قيودِه، يرسفُ في عليائه، تُعليه قيودُه، يُقيِّدُه كبرياؤه، يعلو، يهبط، وأنا لا أعلو، وأنا لا أهبط. أنا ساكنٌ وهو يدورُ حول لساني، أو لساني يدور حوله، ولا يستطيع الإمساكَ به. من الذي لا يستطيعُ؟ أهوَ لساني؟ أم

ذلك النَصُّ المراوِغُ؟ أم أنَّه أنا الذي أراوِغُهما ولا أدعُ النصَّ يتشكَّلُ كي لا يسلبَ من عيني النومَ ويستلَّ الليلَ منِّي؟ فلا أستطيعُ أن أصحوَ لأذهبَ إلى عملي ولا أستطيعُ أن أُفْهِمَ الإدارةَ أنَّ نصًّا راوغني وسرق وقتي وسرق نومي وسرقَ طاقةً كنتُ سأبذُلُها في العمل.

4 أغسطس 2014

شحنة

انقطع حزام الحقيبة التي أعلِّقها بكتفي. سقطتْ على الأرض. يبدو أنها لامست قدمَ ذلك الذي أمسك يدي بعنفٍ. اعتذرتُ له على الفور، فربما آلمه ثقلُ الحقيبة بما فيها من كتبٍ. أخذ يسبُّني. حاولتُ أن أُحْرِجَه بذوقي حتى يستعيد ذوقه. نظر إليَّ مستغربا في صمتٍ طالَ، وكأنه يحاول أن يقرأ في وجهي كلمات باهتة يجد صعوبة في تمييز حروفها، ويبدو أنه فشل في قراءة الكلمات التي يبحث عنها، فلقد قطع صمته وواصل سبابه كأنه وجد فيَّ متنفَّسًا لشيء ما يحتبس داخله أو لشحنةٍ عصبية يرغب في تفريغها. فأنا أيضا لا أجد أحيانا إلا الكلام لأُخرج به كهرباء تكاد تعصف برأسي من كثرة ترددات التيار وتضاربها. لكنني لا أكلِّم إلا نفسي، فأترك في هذه الحالة المجال للساني ليهذي كما يحلو له حتى أفرغ كل الشحنات من رأسي، وربما أسجِّل هذياني على هاتفي لأستمع إليه من جديد عندما تتسرب إلى رأسي

الشحنات وتبدأ التيارات في التضارب وإخراج كل ما لديها من قوة وضعف.

كان الناس يمرون في الشارع بجانبنا كأننا غير موجودينِ أصلا وكأن صوتينا لا يخرجان منا. أعلى صوتَه وهو لا يعرف أصلا كيف يرتِّب سبابا متَّسِقًا، أو يحوِّل السبابَ لقضية ذات معنى، أو يجعلني أستنبط من كلامه صورة ما عما حدث، سواء أكان في الواقع بسقوط الحقيبة أم في خياله بشحناته العصبية.

مبدئيا اعتبرتُه لا يكلمني. وأخذتُ أستمع إلى كلامه حتى أشكِّل صورة عن حالة إنسانية أو موقف بشري أو طبيعة تدفع كل يوم أمامك بالجديد. أحسستُ بأن الشحنات التي تدب في رأسي بخفة منذ الصباح بدأت في استجماع قواها، فقلتُ لنفسي:

- ربما يمكن إخراج الشحنات بالاستماع إلى شحنات تخرج من شخصٍ آخر هذه المرة وليس بهذياني.

وبالرغم من تشتُّتِ تركيزي في ذلك الجو الحار، أنصتُّ إليه بلا كلام، وأخذتُ أعيد ترتيب عبارات كلامه حتى أكوِّنَ منها صورة متَّسقة تجعلني أرسم ملامح فكرة عن شخصيته أو قضيته. واكتشفتُ أنني أحاول أن أحوِّل دفَّة كلامه في رأسي نحو قصة ما كما أفعل مع هذياني بأن أكتب منه قصة تعلو فوق هذياني أو على الأقل ترتِّب شحناته في خيوط قصصية ذات معنى تتضافر مع بعضها البعض.

لكن الغبار تحالف مع الحرارة ليفسدا عليَّ استمتاعي بحالة إنسانية تتقاطع مع شحناتي، فابتسمت ساخرا لذلك العالِم النفسي الذي يحصر ما يسميه مرحلة المرآة في طور الطفولة المبكرة على ما أظن وربما طور الرضاعة فقط.

اشتدَّ الغبارُ، فتركتُ ذلك الصديق – نعم، صديقي، رأيته صديقا في تلك اللحظة، تركته دون أن أكمل الإنصات ودون أن ينهي الكلام لأصعد إلى شقتي ومكتبي بعيدا عن الحرارة والغبار. وجدته يناديني:

- إلى أين أنت ذاهب؟ لم نكمل كلامنا بعد!

ابتسمتُ. رجعتُ إليه. دعوته لتناول شايٍ أو قهوةٍ أو عصير على المقهى الذي بأول الشارع حتى نُخرجَ شحناتنا الكهربائية.

6، 12 مايو 2012

أماكن

توقفتِ السيارةُ التي أمامي فجأة على الطريق الصحراوي الواصل إلى مكة. استغربتُ من توقفها في ذلك المكان المهجور، فلا يوجد أثر لأية حياة. توقفتُ أنا بدوري بدافع الفضول أو الاستغراب أو البحث عن سرٍّ، وربما لإحساسي بالملل من القيادة المتواصلة بلا رفيق. أحسستُ بخيوط قصة تستهويني وتتشكَّل أمام عيني بدلال لا أستطيع أن أقاومه. لم أحس في توقُّفي شهوة جارحة أو نقضا لإحرامي. بالعكس تماما، شعرتُ بأن هذا الرجل ربما يكون جزءا مما هو مكتوب لي على الطريق. مددتُ بصري في ذلك الوقت قبل الغروب. لم أستطع أن ألمح أي ملمح لحياة ولو حتى حياة بدوية، فلم أرَ جِمالا أو خياما أو بيوتا أو أعمدة إنارة أو طريقا جانبيا مرصوفا.

خرج الرجل من سيارته، ممسكا بسجادة أو مصلاة. توغَّل في الرمال. وبالرغم من أنني سرتُ على مسافة تسمح له بأن يراني جيدا، لم يلتفت إليَّ. كان شاردا متأثرا بحالة ما،

وحزينا أو مستغرقا في فكرة ما. بعد مائة متر تقريبا توقف عند أنقاض منزل قديم لا تعلو عن سطح الرمال إلا قليلا. رفع يديه للسماء وأخذ يدعو والدموع تنساب ببطء على خديه. خمنتُ أنه يدعو لموتى، فدعوتُ ربي أن يغفر لأبي وأمواتنا وكل أموات البشر.

فَرَشَ المصلاة بجانب الأنقاض وأخذ يصلي. لم أكن متوضئا. حاولتُ أن أندمج في روح المكان. لم أرَ أمامي إلا مكانا آخر في بلد أخرى ووجدتُني أتذكَّرُ صلاة كأنني أتخيلني أمامي واقفا أصلي. ترحَّمتُ على أبي وملأتُ أنفي من رائحة أخرى وهواء آخر وعَبَقِ مكان آخر.

عندما أنهى ذلك الرجل صلاته، مددتُ له يدي:

- تقبَّل الله.

استغربتُ عندما وجدته ينهض ويحتضنني باكيا. واستغربتُ أكثر عندما دعاني لشرب الشاي. سرتُ بجانبه صامتا وسار بجانبي صامتا. أخرج من سيارته مفرشا وترمسَ الشاي. شربنا الشاي بجانب السيارة في صمت. لم

يتكلم إلا ليسألني عن حالي ولم أتكلم إلا لأسأله عن حاله، وكأننا نعرف أحدنا الآخر. لكن لغة الصمت كانت حاضرة بحميمية بيننا تصل بين حالتينا اللتين تتماسان وتتقاطعان دون حدود واضحة. ومع ذلك كانت لغةً تخلقُ تفاهما واضحا بيننا، كأن ذلك البيت المتهدِّم بيت أبي وأمي كما هو بيت أبيه وأمه، كما استنتجتُ من تصرفاته.

انتهينا من شرب الشاي. نهض ونهضتُ. ألقى نظرة طويلة على المكان. أرتني نظرتي المماثلة مكانا آخر يرتسم فوق ملامح ذلك المكان. أحسستُ بأنني أقف على ضفة النيل بهوائه الذي يتسلل إلى أعماقي، فابتسمتُ. سلمتُ على ذلك الرجل بحرارة وعاد كل منا إلى سيارته.

لم تغادر صورته رأسي. ظلت عالقة كأن المكان المهجور يمتلئ بكل ألوان الحياة. ولكنها سرعان ما بهتت قليلا وتحوَّلت إلى شاشة عرض تمزج بين إضاءتها الخافتة قليلا وصورٍ خافتة أخرى تسقط خفوتها على خفوت الشاشة. وتحوَّل خفوتُهما تدريجيا إلى نهر بضفة واحدة، كأن تصوِّر

الكاميرا جزءا من النهر وجزءا من ضفته دون أن تكون هناك إضاءة قريبة أو قوية تسقط على المكان. فقط شخص جالس على ضفة نهر وبالقرب منه أشجار قصيرة في طرف غيط هو كل الضفة. لا توجد أية أعمدة للإنارة. فضوء القمر غير المكتمل هو الضوء الوحيد المتاح، وربما لم تكن هناك حاجة إلى أي ضوء غيره. أحسستُ في الصورة امتلاء وحياة، وكانت نبرة صوت الماء تجمع ما بين الهمس والتفاؤل والإشراق، فاستبشرتُ بماضٍ يلقي بنصف حمولته من على ظهري وركبتُ سيارتي متسائلا:

- هل رحلتي عمارة في الأرض أم أن حنيني عمارة قادمة؟

26 ديسمبر 2010، 2 يوليو 2012

روائح الأنـهار

بالرغم من قدر الانفلات الأمني الذي أقرأ عنه كثيرا على المواقع الالكترونية ولا أجد وقتا لأشاهده من خلال التلفاز، أوقفتُ سيارتي رغما عني في منتصف الطريق. لم أستطع أن أمنع نفسي من التوقف في هذا المكان. كانت رائحته كسحابة تتعقَّبني لتُخَضِّرَنِي أو ترويني، أو سحابة تريد أن ترتوي مني، فلا أبخل عليها بشيء وأنا في طريقي على الخط الممتد من نقطة البداية والانطلاق. كنتُ قد قلتُ وأنا أحاذي الميقات قبل انطلاقي على الطريق:

- إن حبسني حابسٌ فمحلي حيث حبستني.

لكن رائحة النيل هبَّتْ على أنفي. لم أعرف إن كانت حابسا أم لم تكن. ولم أستطع أن أحدد إن كان وقوفي انتهاكا لحرمة الإحرام أم احتباسا بين يدي رائحةٍ تشتاق إلى أنفي وغيمةٍ تحن إلى جسدي ودمٍ يجري كالنهر في عروقي.

أوقفتُ السيارة بجانب الطريق، وأخذت أتأمل مجرى الماء الذي أسقَطَتْه أمطارٌ صيفية عابرة على أرض صخرية

احتفظتْ به لي. كانت المياه كأنها تجري أو تتقافز فرحا بي، أو لا تعرف كيف تخبئ زهوها. مددتُ يدي نحوها. كانت تتباعد كأنها تهرب مني، بالرغم من أنني رأيتها قريبة عندما شدتْ أنفي رائحةٌ كأنها الحنين.

أحسستُ بأن الرائحة مَصْيَدَةٌ وأنني كنتُ أقع في فخٍّ أسلِّم له نفسي طواعية، فلا أنا قادر على السفر ولا أنا أحتمل المكوث. لا أنا قادر على احتضان الرائحة ولا هي قادرة على مفارقتي.

رأيتُ النيل أمامي يتباعد، كأنه يغوص في الأرض، أو يتوارى خجلا أو غضبا مني أو عتابا لي، ورأيتُني طفلا أركب القارب بجانب أبي أثناء فيضان النيل لنبحر نحو أرض عالية سوّرناها وزرعنا بنباتات تتحايل على الفيضان وأرض أخرى حفرناها لنحفظ فيها أسماكا تتحايل على انحسار الفيضان. كنت فرحا بمنظر القوارب والتحيات التي نلقيها على بعضنا البعض عن بعد، وكأن الماء رسول السلام وكأن الماء يتزوج الأرض. ولم أستطع أن أحدد إن كنتُ

فرحا أم منقبضا عندما أحسستُ أن الفيضان أقل من السنة الماضية كأنه يجامل النباتات التي سوَّرناها أو يعاند الأسماك التي تتحايل على انحساره.

نزلتُ إلى الماء أمامي. لم أرَ إلا أرضا صخرية تجافي أشبار ماء ولا تسمح له بالتسرب إلى أحضانها. ورأيت جدي يحكي لي عن قصة ذلك الشاب العاشق الذي طالبه أبو حبيبته أن يملأ زيرا لا يرتوي ولا يمتلئ، فكلما صبَّ فيه ذلك الشاب دلوا تلاشى في أعماق الزير كأنه لاشيء، لتمر الشهور وهو لا يدري كيف يملأ الزير ليكون جديرا بحبيبته. وبدلا من أن ينظر إلى مجرى الماء ويملأ منه الدلو، غيَّر مسار تفكيره لينظر في الزير حتى يستكشف سببا مقنعا لعدم امتلائه. وجده منصوبا فوق هُوَّةٍ أو سردابٍ لا يعرف إلى أين يصل، لكنه سرداب يبتلع كل الماء ويكفي لأن يكون نهرا فارغا لا يقل ضخامة عن النيل وبإمكانه أن يبتلع كل الماء ولا يترك قطرة واحدة في النيل.

هززتُ رأسي لأتأكد من الماء الذي أمامي، ووجدتُني أعود لسنوات ليست بعيدة ونهر الفرات أمامي جاف كأنه لم يكن، وكأنني لم أجلس عليه وأستنشق رائحته الممتزجة برائحة النيل وأستنشق رائحة مياه تواصل السفر لتلتقي شط العرب في رحلة لا تتأفف من بحر أو محيط.

تحوَّل منظر الفرات أمامي إلى "حِوَالَة صفراء" لا تقوى على الحنين ولا تقوى على التجسد أمامي، وسنوات مضت سيمتد إحساسي فيها من النيل للفرات، ومن البحر إلى منابع النيل، ومن الخليج إلى المحيط، ومن قلبي إلى كل القلوب العامرة حولي.

هل أنا مجنون أم أهذي الآن هذيانا سيوقف حياتي؟ هل أتخيَّل أنهارا أمامي؟ أم أنني أنظر بداخلي فأرى بذورا بإمكانها أن تعمِّر كل هذه الصحراء، بإمكانها أن تبصق في النيل فيفور ويفيض ليشبع رغبة كل الصحاري الممتدة على ضفافه وبعيدا عنه؟ أم أن الشوق إلى كعبة تنتظرني فاض بي وانسكب على أوراق تاريخي فامتزجت الروائح والتقت

المحطات وتقاطعت الأزمنة؟ أم أنني أعشق رائحة المكان وها هي تجافيني كأنني لست هنا، كأنني بقربها ولا تبالي بي، كأنني لا أمد أشواقي آلاف الكيلومترات لتبلِّغها سلامي وتلمس نبضات النيل وتلهُّف الصحراء وأيادي تتلهف على البناء، لكن محتكري الحديد ومحتكري التراب ومحتكري الأزمنة يقايضون دماءها ببيانات تتكرر كلماتُها تكرُّرَ الأنفاس، وتعيد نفس الالتزامات كأن كل بيان لا يشهد على التنصل من الوعود، ولا يشهد على إلقاء المسئولية في قاع بئر يخرس الأيادي الغادرة، ويخرس الخناجر التي تتلألأ في الشوارع على ضوء الشمس، كأنها الحقيقة الوحيدة والصوت الباقي، وكأن مَنْ سِواها ثيران تدور على السواقي مغمضة العينين.

ها هي المياه كأنها تصنع أفكاري، كأن الأرض الصخرية استجابت لشوق المياه، كأن بذورا ستنفجر من الصخور وتتدفق أمامي مُدنا من الأشجار وأعمدة ميادين وأيادي لا تخشى الغد ولا تقلق على قطرة مياه.

بدأتْ أذني تلتقط ضجيجا، تستمع إلى أصوات متضاربة، لكنها تجتمع على نبرة نواح ليست خافتة وليست زاعقة. نظرتُ إلى المياه أمامي فرأيتُ جثثا ورأيتُ بجانبي عربات إسعاف وأتوبيسا مقلوبا ودماء تفيض على الإسفلت. لكنني كنتُ مغمض العينين، كأن شريطا سينمائيا ينعكس على جفوني من الداخل فأرى كل ما أراه.

هممتُ أن أصرخ، فَلَمْ يطاوعني صوتي ولم أرَ شيئا: فقط أحسستُ بأنني محمول وأنني أسمع أصوات أشخاص يُسرعون بي ويترحَّمون عليَّ. من يترحَّم عليَّ ومن يدعو لي بالشفاء. أحسستُ بأن النبرة الجنائزية تتباعد أو أنني أنا الذي أتباعد، وأحسستُ بأن النهر يتسرَّب مني ورائحته تودِّع أنفي. كنتُ طائرا وقع في مصيدة حنين فانبجس دمه وانغلقت عيناه، لكن قلبه كان ينبض بانفعالات لم يستطع أن يفسرها وبأشواق لا يعرف إن كان سيُشبعها أم أن محطاتها ستتباعد عنه، أم أن القلب سيتوقف عما قليل إذا تعطلت عربة

الإسعاف، أو انفكَّ الإحرام، أو فارقته رائحةٌ نَدَهَتْهُ، فلم يعد قادرا على الإمساك بها، أو أنه يخشى أن تغادر أنفَه للأبد.

1 يوليو 2011

درب ذاخر

كانا يركبان حصانين ويبعدان عن بعضهما البعض قليلا، لكن يبدو أنهما كان يسيران معا في نفس الاتجاه كأنهما يربطهما نفس المصير. كان ابتعادهما بالعرض، فقد كانا يسيران بجانب بعضهما بعضا وتفصلهما مسافة قصيرة. لا يتقدم أحدهما على الآخر. كانا رجلا وامرأة في الغالب. لم ألتفت إليهما إلا عندما وصلنا إلى ما يشبه مفترق طرق: إما أن نسير للأمام في نفس طريقنا بجانب الترعة أو نميل مع الطريق الفرعية نحو اليسار.

كانت مسطحات مائية شاسعة في جهة اليسار. لم تكن بحارا ولا محيطات. لم يكن لها موج، لكن الهواء كان يحرك المياه قليلا حركة لا تشعر بها إلا مع انعكاس أشعة الشمس، كأنها مياه حانية الحركة يداعبها الهواء فيهتز سطحُها خجلا.

كان بعض الأطفال يلهون على سطح المياه التي لا يظهر إن كانت عميقة أم لا، لكن يبدو أن الأطفال يعرفون جيدا موقع أقدامهم، ولا يسقطون، بل يلعبون كأن الأرض

صلبة تحت أقدامهم، وفي نفس الوقت كأن المياه مليئة بالأسماك والألعاب والفرص الذاخرة.

لم يتجه حصاني معهما نحو اليسار. ربما تردد قليلا أو فكَّر أن يميل نحو الاتجاه الذي اختاراه، لكنه واصل طريقه بعد أن نظر في الاتجاه وكأنه يؤجِّل الخيار الجديد أو يؤجلني معه. والغريب أنني لم أستطع أن أنزل من عليه. أحسستُ بأنه يتمسَّك بي أو يربطني به بحبل يترك علامات في رجلي. لكنه لم يمهلني فرصة لفعل أي شيء.

يبدو أن المياه أجَّجَتْ عطشَه أو ذكَّرته بهذا العطش، فها هو يميل نحو اليمين، نحو الترعة التي تسير برفقة الطريق. جمح أو أنه لا يعرف أن الترعة يمكنها أن تغرقه. نزل فيها كأنها لاشيء، لكنني لم أتبين المياه التي تملأ الترعة: كانت مجرد حفنات قليلة من المياه في بقع متفرقة في باطن الترعة أو على الجانب الآخر من انحدار مجراها، كأن هذا الانحدار مليء بالحُفر أو الأخاديد التي كان يحدثنا عنها مدرِّسُ الجغرافيا.

شَرِبَ، ووجدتُه يدقُّ برأسه قامة كل طفل أو شاب يمرح في الترعة، وكل من تُدقُّ هامته يصعد فوق الشط ليتفرج. حاولتُ أن أتذكَّر طقسا مماثلا قرأتُ عنه أو مرَّ بخيالي من قبل، لكن ذلك الطقس راوغني وابتعد عن المشهد تماما. حاولت أن أبعدهم عن ذلك الحصان الذي لا يبالي بشيء أو لا يفرِّق بين الوجوه، أو لا يهمه إلا أن يشرب ويدقَّ الرؤوسَ، أو أن جزءا من أسفل رأسه تحت الفم كان يجد لذة في ملامسة الأجساد والرؤوس. أحسستُ بأننا سنستمر إلى الأبد في هذه اللعبة أو هذا العبث أو ما لا أستطيع أن أصفه بلفظ محدَّد.

كان نهار رمضان على وشك الانتهاء. نظرتُ للوراء: لم يستطع نظري أن يتبين أعلى الترعة. كنت أود أن أرى انعكاس الشمس على سطح الماء أو أحدد بُعد الشمس في الأفق حتى أستطيع أن أعرف كم من الوقت يتبقى على آذان المغرب. لكن نظري لم يستطع أن يتجاوز الترعة ولم يُرِدْ ذلك الحصانُ أن يخرج.

كنت حائرا ووجدتُ أنني أحس برغبة في أن أجمع قطع الفحم أو قطع الأخشاب المتناثرة بعيدا عن بعضها البعض والتي لاحظتها على الجهة الأخرى من الطريق الموازية للترعة التي كنتُ أسير فوقها قبل أن ينحرف الحصان. لم أستطع أن أحدد إن كنت أريد أن أجمع الفحم أو الخشب رغبة في التدفئة في جو كنت أحس بأنه شتاء أم لحاجتي إلى فحم أؤجج به رغبة الشيشة في العزف أو تلهُّفَ رأسي إليها بعد صيام طويل.

تذكَّرتُ كلام صديقي الذي يعمل في البوسنة عن نهار رمضان الذي يأكل معظم اليوم ولا يترك لليل سوى ساعات معدودة. لم أستطع أن أحدد ولم تكن رغبتي جامحة. كل ما شعرتُ به هو أنني أريد أن أجمع الفحم، أن أحتفظ بشيء، أن أجهِّزَ زادا لأفقٍ إضافي على الطريق. نظرتُ للوراء. لم أتبيَّن سوى باطن الترعة.

كنت منذ دقائق على الطريق بجانب الترعة بعد آخر كوبري عبرنا فوقه. كنت أعابث شيئا ما اتضح لي في النهاية

إنه ثعبان وإنه لم يتمكَّن مني أو أنني فزت عليه ولم أدعه يمسك بي في نهاية اللعبة. كنتُ أرى في نفس موضع اللعب بُوصًا كثيفا في الترعة، لكن المياه كانت عالية وكانت أسماك كبيرة تفسح لنفسها طريقا بين أعواد البوص. لا أعرف لماذا أخذت أقارن بين ذلك الموضع بعد الكوبري وبين ما أنا فيه الآن وذلك الحصان الذي لا يريد أن يخرج ولا يشبع، ويقف ليعاكس الأطفال والشباب ويتحرش بهم، ولا أدري لماذا كان كل الأطفال والشباب لا يهتمون، وكانت بيوتهم في الجهة الأخرى على يمين الترعة على ما أتصوَّرُ. لا أدري لماذا ركَّزتْ عيناي على ما رأيته مفارقة بين بيوتهم ووقفتهم هكذا.

شعرتُ بوحدة مفاجئة وشعرتُ بالحنين إلى المرأة والرجل اللذين كانا يسيران بحصانيهما نحو المسطحات المائية، بالرغم من أن اتساع المياه كان شاسعا وربما كان يوحي بالضياع. لكنني أذكر دكانا على ذلك الطريق كنا نشتري منه الحلوى ونحن في طريق عودتنا من المدرسة

ذات يوم غائم لم أستطع أن أحدده، ولم أستطع أن أفصل أو أصل بين طريق عادية وطريق كأنها المياه التي أسير عليها بالحصان دون أن أغرق، دون أن تهتز لي شعرة، فقط هزة الفرحة أو الثقة بالنفس أو الاستبشار، والذي كان يؤكد لي دائما أن الطريق لهما.

ظننت أنني كنت سأتكلم عن نفسي، لكنني وجدتني أصفهما هما: كانا ككل الحياة، ولم أستطع أن أدرج نفسي في ضمير يجمعنا سويا. كنتُ أدرك أن على تلك الطريق والمسطحات المائية كلب مسعور بالقرب من الدكان ينهش كل طفل في طريق عودته من المدرسة، وأعرف أنهما كانا يدركان ذلك، لكن شموخهما فوق حصانيهما كان كافيا لأن يغرز الرهبة في قلب كل كلب مسعور.

وربما كانت المسطحات المائية التي لم تكن موجودة من قبل وتأكَّدا من وجودها الآن هي التي جعلتهما يريان مخاطر الكلب تافهة بجانب روعتها. أُدْرِكُ أن بيت مدرِّس الفلسفة كان موجودا على هذه الطريق وربما مازال موجودا

حتى الآن، وأدرك أننا أنا وأخي أقمنا سبيلا للماء البارد على هذه الطريق بالقرب من جامع لا يبعد أكثر من نصف كيلومتر على هذه الطريق لأنها خالية من أي سبيل وأهلها لا يستطيعون تحمل تكلفة سبيل وصيانته على الدوام.

أما أنا فكانت طريقي بها طاحونة أو مطحنة على بعد نصف كيلومتر على الأكثر. أحسستُ بأن الحصان يراوغ الوقت كي لا يمر أمامها إلا أثناء أذان المغرب فلا تعصف به أو تفرمه. لا أدري لماذا أحس بالانقباض كلما مررتُ من أمام هذه الطاحونة. كنت أسمع صوت طحين يدوي في أذني وفي نفس الوقت كنتُ أحس بأنها طاحونة مهجورة لم أكن أجيء إليها حاملا شوال القمح على حمار لأطحنه. تحاول صورة مَنْ كان يديرها أن ترتسم، لكنني لا أذكر منها إلا شاربه الكثيف وأكمامه الطويلة وطول جسمه الفارع وسِنَّته الفضية وآثار الدخان على أسنانه. أذكر شهامته وأنه كان يساعد كل الناس في إنزال حمولات حميرهم ورفعها معهم بعد طحنها.

أحسستُ بأن الترعة تنقلب إلى حفرة لا يحس بها أحد سواي، وأن الحصان لم يعد له لجام، فتحول اللجامُ إلى مجرد دائرة أو طوق جلدي يلتف حول رقبته زينة لها ويمتلئ بزخارف ذات ألوان براقة وشارات أقرب للون النحاسي، وهو يفرح باهتزاز زخارفه عندما يدق جسما أو يرفع رأسه ليلامس بأسفل فمه شعر رأس شاب. أحسستُ بأن ذلك الحصان أضاع عليّ فرصة الرجوع للوراء قليلا واللحاق بهما.

فكَّرتُ أن أنزل من على الحصان وأخرج من الترعة أو الحفرة بقدمين سالمتين وأحاول أن ألحق بهما، ولكنني لم أستطع أن أتصور أو أفهم معنى اللحاق بين شخصين يمتطيان حصانين شامخين يعرفان طريقهما ويستلذان بالمياه التي يتخذانها خطواتٍ لهما، وبيني سائرا على قدمين. أحسستُ بأن الأطفال سيمرحون أو يتعابثون عليَّ ويهجونني عندما أمر بجانبهما، وشعرتُ بأشواك الأسماك التي يرمونني بها تُسيل الدم من وجهي ويديّ، وكان باقي جسمي دون أذى.

هل ظللتُ أفكر كثيرا في الموانع التي تمنعني من اللحاق بهما أو في المخاوف التي تنتابني من القيام بالمغامرة؟ ارتفع صوت أذان المغرب فجأة. لا أدري لماذا أحسستُ أن كل الأطفال والشباب الواقفين ينظرون إلينا أو يدعون أنفسهم لممازحة الحصان أصبحوا كالتماثيل، تجمَّدوا من طول الوقت أو من ثبات نظرتهم وهم ينظرون إليَّ أو من تأمُّلهم لصورة عالقة في الذاكرة، أو عالقة في قاع الترعة لرجل وحصان وحفنة مياه ووحلٍ يكاد يكون مغناطيسا يجذب كل شيء، فتجمَّدوا من طول نظرتهم أو من امتداد آثار المغناطيس إليهم. أحسستُ بأنني سأتجمد أنا الآخر.

حاولتُ أن أقفز، لكنني وجدتُ حبلا أو شريطا جلديا يربطني بالحصان ولا يريد لي أن أرجع إلى طريق بديلة كانت تندهني. تذكَّرتُ اللجام الذي اختفى وتحولتْ قطعةٌ منه إلى طوق حول رقبة الحصان. أخرجت مطواة قرن الغزال من جيبي وقطعته بسرعة قبل أن تتجمد المطواة أو يتجمد

الحبل أو نتجمد كلنا هنا، وقفزتُ إلى أعلى الترعة ورجعت بضع خطوات إلى الوراء.

كان الجو أقرب للغبش، لكن نسمة هواء وظلالَ أشعة شمس غائبة أعطياني نفس الإحساس عندما كنت أركب الحصان وأنظر إلى المسطحات المائية وأرى الرجل والمرأة شامخين فوق حصانيهما. تذكرتُ أن رمضان سيجئ هذا العام في أول يوم من شهر أغسطس، لكنه ها هو في شهر فبراير، وتساءلتُ: هل سأنتظر سنوات طويلة حتى يجيء رمضان في فبراير وألحق بهما على المسطحات المائية؟ وما الذي يضمن لي أن أظل حيا أو أن تجف المسطحات أو تظهر لي آلاف الخيول التي تلهو بالطريق وتلقي بي في قاع ترعة تتحول على أياديهم إلى حفرة يهجرها السمك وتتجمد فوقها الوجوه؟

طردتُ فكرة الحصان من رأسي تماما وطردتُ معها كل مخاوف قد تعطِّلني عن اللحاق بهما. أخذتُ أدرِّب قدميَّ وتوكَّلتُ على الله، مُسارعًا نحو مسطحات مائية ممتدة ربما

أجد فيها نفسي ذات يوم وأنا أهزأ بكلبٍ مسعورٍ سأغرقه في المياه أو أسدُّ فمَه بشوكة سمكة ستعجِّل بإنهاء بلطجته.

10 يوليو 2011

مائدة

لست مسافرا الآن، أنا هنا عابر سبيل مقيم، أقيم للحظات أحسبها سنين، تستدير اللحظات وتنفرد، تتربَّع وتستطيل، تنقطع في عزِّ استدارتِها، وتتواصل في عزِّ تشتُّتِها.

أرى جدي وجدتي يجلسان حولي أو أنا الذي أجلس وسطهما. أراهما لقطة ماضية بالرغم من حياتهما الظاهرة أمام عينيّ. أحس بأنهما حد فاصل على الخط الواصل بيني وبيني. أراهما يتباعدان بطيئا وأرى أياديهما تلوّح، لكنني لا أتبين إن كانا يلوَّحان لي أم لشخص أو شيء آخر. وعند آخر منظر لهما على الشريط الذي أشاهده على زجاج مائدتي، ينفجر الجو وتتساقط اللحظات المسيلة للدموع على كل فجواتي الغائمة.

أطياف تتداخل أمامي. يتحوّل الشريط إلى أشرطة لا متناهية تشوشر على بعضها البعض أمامي، كأصوات على شريط حلقة مسجلة من حلقات مجلس شعب ما. "وأنا أهرب

من ذكراك عبر ضباب خلف سراب، أبحث عن كلمات غابت، عن أشياء أو تذكار. طال الفراق يا زمن والذكريات لا تُمَلّ، والطائر شدا وغاب في المدى، وغاب في المدى"[1].

ما كل هؤلاء العشاق المتجمعين فيّ؟ أحس بأن رأسي مائدة طويلة لا انتهاء لها، تلتف حولها وجوه لا أستطيع عدها، وجوه قابلتُها، وجوه تخيَّلتُها، وجوه قابلتْني، وجوه لم تعرفْني، وجوه كأنها الغياب الأبدي الذي يحلو في العين لأنه غير موجود، وجوه كأنها الحضور الأبدي الذي يحلو في العين لأنه هو الذي يعطيها القدرة على الإبصار، وجوه تحتضنني في شوق يغمرني بروائح نسيتُها، وجوه تلوّح لي بيدها غاضبة لأنني لم أمد لها يدي في الوقت المناسب أو غير المناسب...

أنا مسافر في دمهم، أجمع تذكاراتي من جلطاتهم وسكناتهم وحركاتهم العابرة، أهديهم نفسا أخيرا متبقيا لدي وفَّرتُه للحظة ثرية كهذه. يسافرون فيّ، كغيوم عاشقة تحلم

[1] من أغنية "شوق" لأمل مرقص، من ألبوم بنفس الاسم.

بالذوبان في المطر، تحلم بأن تلامس حبة رمل متشوِّقة للقائها، فتفضّ غشاءَ صحرائِها وتُحْبِلُها بالخضرة النابتة.

أفضفض لهم ببضع كلمات تخنقني، كل كلمة منها جبل من دخان أزرق يحتبس في رأسي، فيرفعني إلى الغيم قطرةً حالمةً وحبَّةَ رملٍ تودُّ لو تعانق السماءَ وتنظِّم مرورَ السُّحُبِ في جدول الأيام والفصول الموسمية التي لا تقيم.

ماذا بي الآن؟ لحظات كأنها الخيال، والعمر المحال، وابتسامات ساخرة كالمرارة؛ تلتف حولنا الأرض، وتنثرنا ببعض غبار السنين، تثور عاصفة أيامنا في هذا الغبار وكأنهما سواء، وعندما نحاول أن نفض اشتجارها، تصطف كل الأيام بلا انتظام وتمر علينا كأننا مكان يعبرونه في رحلتهم الأبدية.

تمر علينا كل الأيام، تلقي علينا بمشيمة وليد، تنغرز الإبر في يدي، ويلتصق ظهري بالسرير كي لا يقتربَ الموتُ الواقفُ حراسةً في نوبته النهارية، يقترب اللصوص من يدي، لا الإبرة وجدت عِرْقًا تسكنه، ولا ظهري ألِفَ

السريرَ، تدور الصورُ أمامي، كشاشة تليفزيونية تمتد بطول نبضي القلِق.

لا تأتِ يا صديقتي اليوم، كي لا تَرِي المشيمةَ التي تعاند سكِّين الوقت أو يشفطكِ شهيقُ الحارسِ النهاري النَّهِمِ. يستدير الحارس. يبدو أنه ملَّ جلسته في انتظاري أنا وأصدقائي، يتجه نحو طفل يلهو على مقربة بثمارِ شجرة خضراء، يحتضنه إلى أن يعتصره ويُدْخِلَه في عظامه، ثم ينتفض الحارس ويقف باسما حميما كأنه لم يكن منذ لحظات في نوبة إدمان.

تمر علينا الأيام. أنهض مُرَحِّبًا بها. أُمْسِكُ يَدَ كل يوم منها وأُقَبِّلُه قُبلةً تحاول أن تنفذ إلى روحه لأتشمَّمَها إلى أن أقع مغشيا عليّ بين أياديها. تفزعني تشققاتُ الأيدي والثقوب التي تسكنها كعجائز لا يعرفن لهن بيتا إلا بيت ذكريات لا يفارقنه أبدا. أتوسّل إليها أن تحّل بي ضيفة على مائدتي في هذه الأغنية. لكنها لا تقبل حق الضيافة وتعزف لحنا منفردا

يطنُّ في أذني كجدارٍ قائدٍ مُتهالكٍ صَدَرَ له أمرُ إزالةٍ وبدأ يعزف لحن سقوطه بمن فيه على مهلٍ.

يتردد لحن شجي في أذني. أنصت لنغماته الشاردة. تصطادني النغمات في شبكة وقتها. مغناطيسها صلاة ترفعني في الملكوت. أرى الأيامَ عصافيرَ تنقر الأرض تحتي، وأنا أرمي لها الحَبَّ. تنقر الأرض وترمي حبوبي في مزبلتها. نغمةٌ تسابقُ نبضي. أجري وراءها. تستبقيني الشَّبَكَةُ التي نستْني فيها النغماتُ. أتقلَّبُ في خيوطها، كعاشق يجلس أمامي الآن، يحتسي شرابي الوحيد، ويأكل رغيفي اليتيم؛ وعندما أمد يدي لأقاسمه عشائي الأخير، يرجمني بأنفاسي، ويستبقي نفسا واحدا يتلاعب به كبالون يوشك أن يغرز فيه إبرة الخيانة. يتبدّد النغم من أذني فجأة وينصرف العاشقون المتجمعون حول مائدتي، فلا أقدر أن أسترجعه أو أستبقيهم.

28 أبريل 2010

تداخُلُ الأحوالِ

لم أره. أحسستُ به يكاد يلامس الشعيرات المتناثرة على جلدي، فوقفتْ احتراما أو رهبة. سرتْ قشعريرة خفيفة في جسدي، ليست خوفا أو رعبا، لكنها سرت كأنها تقدِّم له واجبات الضيافة. سمعتُه يقول:

- كيف حالك يا صديقي؟.

لم أسمع السؤالَ بهذه الصياغة منذ فترة طويلة، فكل ما كنتُ ومازلت أسمعه: "كيف حالك؟" وقد يضاف لها اسمي بلقب أو بدون. رأيته في منامي بالأمس. وبالرغم من غرابة الموقف – وهل خرج من المنام لأراه الآن أم أنه دخل في منامي ليبلغني أنه سيزورني قريبا أم لا؟ – كنت أنتظر أن يسأل عني، فأجبتُ عليه على الفور كأنني أنتظره أو أنني أعددت إجابتي منذ المنام:

- حالي من حالك. حالي ليس حالكًا. حالي ليس بائسا. حالي تائه وحالتي تتحسس طريقي ولا أراها. لكنني لا أدعها تفلت من إحساسي بها.

وما إن طمأنتُه حتى أحسستُ بقشعريرة أخرى تسري في جسدي، ثم وقفَ شعَرُ جلدي من جديدٍ كأنه يودِّع شخصا في صالة حلم.

26 ديسمبر 2010

الخروج إلى العاصفة

كنتُ أرتعد كلما نظرتُ لأسفل حتى ولو بزاوية حادة تماما. كانت الصخور والتلال والجبال أسفلي منذرةً، وكانت المياه المترامية تحتي على البعد كأنها تهمُّ بأن تفور لتبتلعني. فقط عندما كنت أنظر للأمام ولا أحاول الاقتراب بنظرتي لأسفل، كنت أجد هواءَ كُلِّ البلدان يجتمع ويلتقي في رئتيَّ وكنتُ أحسُّ بالانطلاق وأنني أريد أن أفتح ذراعيَّ، لكنني تخيَّلتُني وأنا أفتح ذراعيَّ كصليب أو مقصلة، ووجدتُني أرى بروميثيوس[2] واقفا على جبل يفرد ذراعية على المقصلة بالرغم منه، لكنه على الأقل لم يكن تحته محيط يبعد عنه آلاف الأمتار هكذا. لم يكن على وشك السقوط فيه كل لحظة. وكان يستنشق هواء البلدان ويلتقي به كل ثانية دون أن يكون معرَّضا للسقوط.

كان شامخا في مقصلته وكان مقيَّدا: أمن السقوط. الهواء البري. القيد. ميزتان وعيب. وأنا بلا قيد، ومحيطٌ

[2] ربما تجدر الإشارة هنا إلى مسرحية "بروميثيوس طليقا" لشيلي بترجمة لويس عوض، خاصة المشهد الذي يصب فيه غضبه على الكهنة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

تحتي يحاول أن يبتلعني. لم يكن خوفا من الأرض التي ترتفع عن مستوى سطح البحر. من قال إنه بحر؟ لابد أنه محيط. فكل ما أعرفه البحر الأبيض والبحر الأحمر والبحر الميت، وكل منهم شواطئه أليفة لا ترتفع هكذا ولا تبتعد مياهه لتشدَّك إلى أسفل سافلين. لكنهم كانوا: أحمر بلون الدم، أبيض بلون الموت، أسود هو الموت ذاته. ونسرٌ جريح ينظر إلى الدم النازف منه، إلى كفنِه الأبيض، إلى شارة سوداء تعلن الحِدادَ على شهداء لا ذنب لهم إلا أنهم فكَّروا أن يكونوا نسورا يتصيَّدون كل حيوان يفرِّغُ الألوان من ثرائها. لا أعرف لماذا تذكَّرتُ تشرين، فأنا لا أعرف المقابل الميلادي له، لكن ربما أكد لي نزار قباني مرارا أن "تشرين نواح". أخذتُ أستمع لصوت بكاء لا أدري من أين يجيء، لكنه كان واضحا في أذني.

كنتُ واقفا أمام المرآة وأغلقُ البابَ عليَّ. أحاول أن أستفسر من المرآة عن بعض الملامح أو أستفسر منها لماذا أنا هاهنا في هذا المكان، كأن الأماكن تتآمر عليَّ. ماتت

زوجتي في مكان ما في حادث. ومات أخي في مكان آخر وحادث آخر في التوقيت ذاته، واحترتُ إن كان التوقيت هو الذي يتآمر أم أن المكان هو الذي كذلك أم أنني فقدتُ إرادتي أو أنني استسلمتُ لكلام كنتُ قد قطعت الصلة بيني وبينه منذ سنين، وسمعتُ صوت أبي:

- الأخ لزوجة أخيه وزوجة الأخ لأخيه.

إن كنتُ قد فقدتُ الإرادة فعلا، فأنا لم أفقد العقل، ولحسرتي لم أفقد الجسد. لم يكن الأمر طبيعيا، واتفقنا مبدئيا أن نتواجد فقط في الشقة نفسها دون أن نقترب من بعضنا البعض. قالت لي المرآة بأنني وأنها لم يكن لنا أي مبرر، فكل منا كان بإمكانه أن يعيش بمفرده، أن يواصل حياة بدأها مع آخر ويستطيع بعد رحيل الآخر أن يواصل هذه الحياة بمفرده بذكريات السنين والأطفال الذين سيجعلون للحياة نظرة أخرى، أو يواصلها مع شخص غريب عن زوجه سيقترب منه. وعادت المرآةُ تؤكد وتكرر:

- لا مبرر لك.

وأحسستها تُخرج لسانها لي. لكنها عادت وضحكتْ قائلة:

- وربما كان لك ألف مبرر معها أو مع غيرها.

ابتسمتْ ابتسامة عريضة ثم قالت لي:

- الآن كنتُ معها في الغرفة الأخرى وقلتُ لها الكلام نفسه، عندما قلتُ لها ذلك سحبتْ الغطاء على جسمها ودفنت وجهها في المخدة وأخذت تهتز من البكاء أو تبكي من الاهتزاز.

هل كانت علاقتنا حفاظا على ماء وجه أم تقليبا لتاريخ أم حفظا لتقويم قديم ما عاد يدل على الأوقات؟ سؤال بدر في ذهني ولم أستطع أن أجيب عليه، ولكنني وجدته يسحب معه سؤالا آخر في صيغة خبرية:

- وربما كان موقفا مبدئيا، مبدئيا يعني قابلا للتغير، وقابلٌ للتغير يعني أن الحياة ذاتها قابلة للتغير، وأنه كان بإمكانكما أن تبدآ، كلٌ في طريق مع وجه آخر، مع وجه لا يكتسب ميزة سوى أنه مألوف وماعدا ذلك

طريق طويل من المحرَّمات ومن الفكر الحيادي ومن النظرة التي لا ترى سوى أخا أو أختا.

أحسستُ بهيثكليف بطل رواية "مرتفعات وذرينج" لإميلي برونتي يقترب مني. يدخل في جسدي. صرتُ غاضبا، صرتُ حانقا، صرتُ بمظهر خشن فظ بإمكاني أن أسحق العالم كله كذبابة وأن أخبِّئ حبي للعالم كله في قلب ذبابة أو قلبي أو قلب حمامة تأتي كل صباح لتصبِّح عليَّ من فوق الشجرة ثم تنصرف. كان بإمكاني أن أصنع دولة وأن أدمِّر كرة أرضية، أن أحطِّم قيدا وأن أصعد إلى ذلك الجبل لأقتلع بروميثيوس وقيوده وألقي به في الهاوية ليتهشَّم على الصخور المدبَّبة ويضيع صوته وسط صوت الماء والهواء المسافر الذي يرتطم بالجبال.

خرجتُ من غرفتي هادرا. لم يكن أحد بالصالة، فكل الأولاد خرجوا على ما يبدو ليقابلوا أصدقاءهم. هل خرجوا فعلا؟ الذي أعرفه أنهم تزوجوا وأنهن تزوجن. لكنني شممتُ روائحهم في الصالة الخالية، كأنهم لم يغادروها إلا منذ

دقائق. ووجدتُ حال هيثكليف يختلط بحالي. كان هيثكليف يلعن كاثرين لأنها تزوجت بغيره، ووجدتني ألعنها لأنها تزوجت بي. وأحسستُ بأخي يجلس مع أبي في الملكوت تحت شجرة من شجر الجنة وهما يخططان للإطاحة بي، لإبادتنا على الخيانة أو على تحويل المسار أو على شيء لم أستطع أن أتبيَّنه من أعينهما ومن كلامهما الذي لا يودَّان أن تستمع إليه ملائكة أو شياطين. استغربت أساسا من فكرة الملائكة والشياطين داخل الجنة ومن فكرة التآمر داخلها أيضا ومن فكرة أنني خائن وأنها خائنة أو أننا ... ماذا؟

لم أتقبَّل فكرة الخيانة وفي الوقت ذاته كنتُ أحس بفاصل سميك، بجدار عازل من أمثلة ذلك الذي كان يبنيه المخلوعُ. أحسستُ بأن الوضع غير طبيعي أو على الأقل بإمكاني أن أفتح صفحة جديدة مع عالم آخر، أن أرجع إلى أول النبع وأطرق باب فتاة جازوت الخمسين، لكنني لا أذكر عنها أو بها أو فيها أو... سوى أنها في بداية العشرين وأن ابتسامة عينيها تكفي لأن تخلِّص العالم من كل كآبته وتزرع

الأوطان في مخلَّفات الجبابرة، وأن إقبالها على الحياة يكفي لأن يعمِّر كل هذا العالم ويملأه بالخضرة والمصانع والشركات العابرة للقرى. وأحسستُ في هذه اللحظة بأن العالم كله في قلبي وأنني أُدفئه بدمائي.

فتحتُ باب "كاثرين" على مهل. وجدتها تلتقي بنفسها على السرير. كانت عيناها غائرتين والعرق يبلل مخدتها وربما اختلط بالدموع، وكانت نظرتها بعيدة. التفتتْ إليَّ دون أن يتوقف اهتزازها أو تخرج يديها من تحت المخدة التي يحتضنها وجهها، قائلة لي:

- لا. لا تُفسد عليَّ لحظتي. لا تخنْ أخاك. لا تخن رؤية لي تتشكل بخيوط اللذة.

ابتسمتُ بالرغم من أنني شعرتُ أنني أريد أن أعصف بها وبجسدها وبرغبتها في هذه اللحظة، وأن نلتقي بعيدا عن الحواجز النفسية والعصبية والتاريخية، وأن نحاول أن ننظر للعالم نظرة جديدة نكتفي فيها بأن نكون أصدقاء.

لكنني ابتسمتُ على كل حال، ولم أشأ أن أضحك عاليا كي لا أُخرجها من حالتها. فقط ضممتُ قبضة يدي وعصفتُ بالمرآة لتتحطم. لم أعرف إن كان صوت التحطيم قد أخرجها من حالتها أم لا. أَسِفْتُ عندما خمَّنتُ أنه جرح خيوطَ لذَّتِها. لكنني رأيتُ الدم ينشع من يدي ورأيتُني أسير في طريقٍ نحو فتاة خمسينية وأنا أرجو الله ألا تكون قد غيَّرتْ عنوانها.

1 يونيو 2011

ما هذا يا سيادة القارئ؟

ليستْ مهداة إلى أستاذنا أمل دنقل

قلتُ:

- فليكن الماء في البحر.

رأيتُ أسماكا تموتُ لأنها ظهرت في بحر بلا ماء. وبمجرد أن فكَّرتُ في ذلك السبب، نظرت لي سمكةٌ كانت تقاومُ، وقالت لي:

- كيف تسمّيه البحر وهو صحراء بلا ماء ولا ينفتح على بحار ولا محيطات؟

أحسستُ بخيبةٍ، خاصة وأنني أنتقد استعمال صيغة التعريف في بداية القصة. ها نحن تحدَّثنا عنه، فلأستعملْ صيغة التعريف إذنْ.

قلتُ:

- فليكنْ السمكُ في البحر.

ظهرتْ سُحُبٌ. استبشرتُ وأخذتُ أصلي صلاة استسقاء ولا أعرف إن كانت صلاة الاستسقاء فردية أم جماعية. قالتْ لي سحابةٌ:

- يا عبيط! ليس بنا مَلْحٌ. إن سقطنا هنا، لن يكون بحرًا.

قلتُ:

- فليكنْ الملحُ في البحر.

بانتْ نتانة السمكِ المتعفِّن الذي أحضرتُه إلى قصَّتي. عَلِقَ ملحٌ بلساني، وظهرتْ تقيُّحاتُ بيضاء أشبه بمَلْحِ التُّربةِ الرمليَّةِ على جسدي.

قلتُ:

- فليبرأ جسدي من الأملاح.

تشنَّجَ جسدي طويلا. وما إن هدأ حتى أخذ يعدو بعيدا عني قائلا:

- يا عبيط! كدتَ تضيِّعُني معك. فليكنْ الكاتبُ بلا جسدٍ!

~~هههههههههههههههههههههههه~~ **18 سبتمبر 2014**

إنصات

ـ لماذا أحضرتَه معك؟

قالها لي سيِّدُ الصحراءِ وهو ينظر بطرف عينيه إلى صديقي. لم أستطع أن أقول له إني خشيتُ الغدرَ فأحضرتُه معي لأشْدُدَ به أزْري، مستلهِمًا الآية القرآنية في سياق مختلف تماما. لكنه كرر السؤال، فأخفضتُ عينيّ إلى الأرض، ربما لأجعله يحس بأنني أخطأت، وربما لأجعله يستردُّ ثقتَه بي، وأستردُّ ثقتي به، ثقة ربما لا تكون في محلها. آثرتُ الصمت. وعندما هدأتْ ملامحه قليلا، عاودتُ استفساري:

ـ كيف لي أن أغرسَ الروحَ في قصيدة لم أؤمن إلا بتفريغها من كل ما اعتادوا عليه؟

أخذ يتكلَّمُ كأن صديقي ليس له وجود:

ـ استفتِ قلبَكَ.

قالها وهو يمزِّقُ بعض الدواوين التي أشاد بها أمامي مرات، فقلتُ له.

- لقد استفتيتُه مرات ومرات ووجدتُه يضخُّ في عروقي نبضاتٍ راقصةً ومتأمِّلةً وغاضبةً وراضيةً في الوقت ذاته، نبضاتٌ تجعلُني ابتسمُ دون أن ألمس سببا محدَّدًا لذلك الرضا.

أمسك يدي وشدني إلى خارج الكهف قائلا:

- انظرْ إلى تلك النباتات المتفرِّقة، هل سمعتَها ليلا وهي تناجي بعضها البعض أو وهي تحذر بعضها البعض من وحوش ستدهسها في آخر الليل؟ هل سمعتها؟ هل رأيتها تُخْرِجُ سُمًّا على عَجَلٍ لتفاجئ به من يَقْرَبُهَا غادرا؟

وساعتها أدركتُ كم أنني كنت انطوائيا، فلم أكن أصطفي إلا نباتا واحدا في المرة الواحدة وأجعله يدرِّبُني على لغة الخضرة التي سرعان ما أدركتُ اختلافها من نبات لآخر برغم كثرة وجوه التشابه. ولكنني خجلتُ منه في هذه

اللحظة ولم أشأ أن أبيِّنَ له عجزي عن الإنصات إلى أكثر من صوت في نفس الوقت وعجزي عن النهل من القاسم المشترك بين لغات الخضرة. كرر عليّ سؤاله وهو يأمرني بالانصراف، موحيا لي بأنني عليّ أن أستكشف بنفسي تلك النباتات التي ستقدم لي تفسيرا لمدى صدق رضاي عن قصيدة أكتُبُها.

نظرت إلى صديقي وهبطنا التل في صمت. ركبنا سيارتنا دون أن نحاول أن نلتفت للوراء خشية أن تنحسر الرؤيا. لكن أصوات النباتات لم تغادر أذني، بل علت أصواتها على صوت محرك السيارة القديمة الذي يطن كأنه استحوذ على المكان واستملك الزمان. ولكننا عندما كنا نتكلم، كانت أصوات النباتات تبتعد وكأنها تنصرف غاضبة أو كأننا استحوذنا على مكانها وسط الصحراء.

وكان عليّ أن أعتذر لصديقي الذي وضعتُه في موقف حرج. وجدتُ صديقي يهوّن عليّ ما لاقاه، إذ أنه استطاع أثناء غيابنا أنا وحكيم الصحراء خارج الكهف أن يفك بعض

الطلاسم وأن يملأ أذنيه بأصوات المكان وأنفه برائحة لم يشمها من قبل، رائحة أوشتْ لخلايا مخه بالتفتح فبدأ يفكر في أشياء لم تكن تخطر له على بال؛ فقال لي إنه يسمع الآن من ذلك المكان البعيد في آخر رأسه أصواتَ قصيدةٍ تناديه أو تناجيه أو تلح عليه في إصرار وكأنها أمسكت به أو كأنها تصر أن تستحوذ عليه وها هو لا يفكر في القيادة ولا يفكر في الطريق، بل يحاول أن ينصت إلى أصوات القصيدة فربما جعلته ينظر إلى الطريق من زاوية مختلفة، زاوية تفتح له باب الرؤيا على مصراعيه وتشكِّل له بصيرة تلتحم بالطريق وتستكشف نبض خطواته.

استبشرتُ أو تلاشى حَرجي. وتركتُه ينصت إلى أصواته وتركتُ أذنيّ للإنصات إلى لغة الصحراء ولغة النباتات.

أوقفَ السيارة فجأة وكأنه سمع رغبتي في التوقُّفِ عند الشجرة التي توقّف عندها. هممتُ أن أفصح له عما يدور في رأسي، لكنني وجدته يُخْرِجُ هاتفَه ويفتح جهاز التسجيل ويبدأ

في الكلام. فتركته وحيدا وأنصتُّ إلى الشجرة لبضع لحظات، ثم أخرجتُ هاتفي وفتحت جهاز التسجيل لأبدأ في الإنصات إلى صوت قصيدة تخرج متدفقة، وكأنها تبث المزيد من الحياة في كل القصائد التي كتبتُها من قبل.

نظرتُ للوراء إلى ذلك التل وذلك الكهف الذي بدأ يودع أشعة الشمس الغاربة. نظرت وأنا ألوح له أمام الكهف وكأنه يراني. وأخذتُ أبثُّ الشجرةَ روحَ قصيدتي لعلّها عندما ينتصف الليل تصير حاجزَ صدٍّ ضد وحوشٍ تلتهم الخضرة وزوَّارِ فجر لا يقدِّسون خصوصية أو يعرفون طريقا.

25 أكتوبر 2008، 2 أبريل 2012

وكأننا

بينما كنا مندفعين إلى قمة التل الصخري، وجدته يستوقفني. ناداني بعينيه وأشار بيديه إلى جانب المنحدر. كلَّمَنِي عن الشجرة الصغيرة التي اخضرّت وقد كانت جافة تماما في الوقت ذاته من شتاءِ العام الماضي وفكّر ساعتها أن يجتثّها ليستدفئ بها. ولكنه كان كمَنْ سمع أنيننا ساعتها أو كأن صوتا من داخله أمره بالابتعاد عنها، فلبَّى الأمرَ راضيا، دون أن يترك لنفسه مجالا للشك في مصدر الصوت أو جديته أو حقيقته، لكنه لبى النداء صامتا وعلى شفتيه ابتسامة لم يَدُرْ ساعتها ما معناها. وها هو الآن يدرك أحدَ وجوهها، أو أن هذا الوجه هو الذي انكشف له.

وكأنني أبصرت وجهين له: وجه يجلس بجانبي وكان من قبل يتسلق معي المنحدر، ووجه يجلس خلف الشجرة مبتسما. أحسست بالرهبة أو أن قشعريرة سرتْ في بدني فنبَّهَتْني إلى أن هناك ما أخشاه، إلى أن هناك شيئا ربما يكون

خطأ أو خارقا، فاستعذتُ بالله من الشيطان كي لا يَلْبَسَني أحدٌ أو يسكن جسدي أحدٌ.

ولكن القشعريرة لم تفارقني ولم يختفِ الوجهُ الجالس مبتسما خلف الشجرة؛ فتحسستُ جسدي وكأنني وجدتُ رأسا أخرى تنبثق من رأسي، ذراعين آخرين، قدمين أخريين، وعدَّةَ ألسنةٍ. أبصرت عدة ألسنة كأنها تنتشر وتتعارف على بعضها البعض، وتذكَّرتُ كلام الله عن الشعوب والقبائل التي خلقها لتتعارف، أو لعلها أصواتٌ كثيرة تتحاور أو تتداخل في رأسيّ. ففكَّرتُ في أن أعبّر عن خوفي، عن استغرابي، عن رغبتي في التعارف. لكن صديقي كان هائما، كانت وجوهه تتزايد حول الشجرة، وأدركت أنه لا غرابة فيما صار لي، فصديقي مثلي أو أنا مثله أو أننا في حلم.

لكننا لم نكن في حلم: فهناك سيارة تركناها لم تتكاثر بل هي سيارة واحدة مازالت بلونها الأحمر، صحيح أنها حجمها تضاءل قليلا، لكنها كانت كما تركناها قبل أن نصعد المنحدر.

ربما راودني فَرَحٌ بتعدُّدِي وتعدُّدِ صديقي، لكنني لم أستطعْ تفسيرَ كلِّ تلك الأحاسيس التي أحسُّ بها، أو كلِّ تلك الأفكار الضاربة المتضاربة المتناغمة الفائرة التي لا أستطيع تحديد مصدرها: أهي من هذي الرأس أم تلك أم أن رؤوسا أخرى تنبت في رأسي ولا أراها؟ وكأنني أبصر كل شيء حولي من جميع الاتجاهات، كأن لي عيونا ورؤوسا في كل اتجاه.

أحسستُ ساعتها برغبتي في الابتعاد قليلا عن صديقي، فبالتأكيد سأرى شيئا مختلفا أو أجد شيئا يحاورني أو أجد تفسيرا لتعدد وجوهي. ووجدتُني أسمعُ أصواتي وأشمُّ فيها كلَّ النصوص التي كتبتُها، وكلَّ ما أحلم بأن أكتبه، وكأنني أنتمي لزمن قادم، كأنني عشت مائة عام ومتُّ وها أنا أولدُ من جديد لأتذكر كل ما حصل لي في أعوام حياتي الأولى وما رأيتُه في المائة عام التي متُّ فيه، وأضيف إليهما ما أنا فيه الآن، فكففتُ عن محاولة إيجاد التفسيرات لما أنا فيه وبدأتُ في الاستغراق في لحظتي والإنصات إلى أصواتي،

أصواتي التي أنا متأكد تماما الآن من أن صداها سيتردد كثيرا في أذني، وأن هذا التل وهذي الصخور ستُسَجِّلُ كلَّ ما أنا فيه الآن لتهديني إياه في لحظة ربما أرتدُّ فيها إلى ما كنتُ عليه وأعودُ إلى تلك السيارة القديمة الضاجة الاحمرار، وكأن تلك السيارة كانت تبث أشعة ما بعد الخروج منها، أو هي التي رفعتنا إلى هذا التل، أو أن عيوننا انبثقت من أنوارها.

نظرتُ إليها في امتنان أو أنني شكرت ربي على ما أنا فيه وخصوصا بعد أن استعذت بالله من الشيطان ولم يتغير من حالي شيء. أحسست أنني في وضع خارق، لكنه ليس بِشَرٍ، بل هو نعمة من الله، فحمدته، أو أنني اندمجت في وجوهي وتعددي دون أن أفكر فيما سأكون عليه في اللحظة التالية.

25 أكتوبر 2008

شجرة الميدان

وقف الزمنُ ليلتقطَ أنفاسَه. نظر نحوي نظرة مُرهَقَة ولكنها حانية. مد يده. تحسس عيني المربوطة. أخذ يتمتم بأشياء لم أفهمها بينما كان يتجوَّل بنظره في الميدان حولنا. ربما كان يستحضر مشهدا مشابها، أو يتذكَّر لغة مرَّ بها، أو يسترجع إحساسا ولَّده داخله منظرُ ميدانٍ مرَّ به من قبل. عندما رأى كمَّ العيون المربوطة والأيادي المُجَبَّسَة، قال لي غاضبا:

- متى حدثت حربُ العيون هذه؟

نظرتُ إليه باسما وساخرا في الوقت ذاته:

- أأنت الذي تسأل عن زمنها؟

رفع يده من على عيني ووضعها على كتفي قائلا:

- يا ولدي الزمن سينتبه لمن أم لمن أم لمن؟ سينتبه لماذا أم لماذا أم لماذا؟ لستُ الزمنَ الأبدي الذي تظنه. الزمن زمنان: زمن لا تراه لا يبتدئ ولا ينتهي، لا تلمسه،

ولكنه يلتقي المكان وعندئذ تتحقق كل المعجزات، أو ما تظنها معجزات، وما هي إلا نتيجة للقاء حبيب بحبيبه، والسعيد هو من يتماس معه ولو في نقطة صغيرة، ساعتها ستحس بأن لمساتك لن تفنى، لن يستطيع أحد أن يبيدها، ستحس أن بيدك أن تغيِّر العناوين والملامح وترسم بيدك لوحتك وتدوِّن فيها ما تشاء، ويقف هذا الزمن على رأسك مشجِّعا وراضيا عما استطعتَ أن تحققه بعدما تلامستَ معه، وأظن أن ميدانكم هذا هو الحبيب الذي التقاه الزمن الأبدي ليكتبا به أنشودة عشقهما وعشقِكم للحياة والجمال والبشر؛ أما الزمن الثاني فهو الزمن الذي تلقاه على الطرقات مثلي، تراه مُرهَقا، تراه متعبا، تراه متسائلا، تراه جاهلا، تراه يحاول أن يستجمع ذاكرته، تراه صالحا وفاسدا، عجوزا إذا التقى بعجزك وشابا إذا التقى بشبابك، وربما متجبرا وخائنا إذا غاظته قوتك أو طموحاتك أو أحلامك. وهذا الزمنُ يحسد الزمنَ الأبدي على توحُّده بالمكان، لكنه ليس مكتوبا عليه أن يستقر أو يتوحَّد

بمكان، لذلك تراه متقلبا، يعشق هذا المكان حينا وسرعان ما يُطرد منه لينتقل إلى مكان آخر فَيَرُوجَ هذا المكان، وهكذا إلى أن يقبض الله الأرضَ ومن عليها وما فيها.

كان يتكلم بانفعال شديد لدرجة أنني خشيتُ أن يتوقَّفَ قلبُه، أو على الأقل ما ظننتُ أنه قلبه، لأنني رأيتُ فيه إنسانا لا يختلف كثيرا عن أي أحد من البشر. يبدو أنه فهم ما يظهر على وجهي من تعبيرات، فلقد قال لي:

- لا تخف. قلب الزمن لا يتوقف إلا حين يحين يوم قيامة هذا الكون. معذرة. عما كنا نتكلم؟

جال ببالي خاطر خبيث أو مَرِحٍ، فأمسكتُ بإحدى القنابل المسيلة للدموع الفارغة ومددتها له طالبا منه أن يشمها كي تنعشه أو تُعلي ذاكرته. لكنه سعل بشدة عندما شمها وأرجعها لي على الفور، ثم سرح ببصره في المدى كأنه يحاول أن يتذكر شيئا مناسبا للموقف، وبعد صمت طال لدقيقة أحسستُها ساعات ترقُّبٍ مليئة بالمجهول، ولكنه

مجهول معروفة نتائجه، فهو لا يحمل إلا مزيدا من التربُّص، التفتَ نحوي وقال:

- لا يهم. سأتذكَّرُ بالتأكيد فيما بعد، وعندما أمر عليك في ليلة الغد ربما نكمل الكلام عن الإحساس الذي ولَّدته داخلي تلك التي تقول عنها قنبلة غاز.

صمتَ للحظات، ثم أكمل كلامه أو فتح موضوعا جديدا: لستُ أدري، فربما كان الإحساسُ الذي نسيَه واصلا بين ما قاله وما سيكمل قوله، وربما كان موضوعا مختلفا تماما:

- هل تذكر سيزيف؟ كان بإمكانه في شبابه أن يرفع الصخرة آلاف المرات إلى قمة الجبل دون أن يحس بالتعب، وكان أحيانا يشعر بالالتقاء بين زمانه ومكان الصخرة أو الجبل، فيجعل من موضوع قيده لذة روحية هائلة تجعل سجَّانيه يشعرون بسخف أحكامهم وبضعفهم أمام إرادته وتواصله من نفسه ومكانه؛ لكنه

الآن يستغرق أياما وشهورا ويحس بأن آلام الرَّفْعَةِ الواحدة لا تُحتمل.

يبدو أنه كان يستلذ الكلام، ولم يكن ينتظر مني ردا أو تفاعلا، ولذلك واصل كلامه أو انتقل إلى موضوع آخر، ولم أملك إلا أن أواصل الإنصاتَ، فلقد كنتُ أحس بأن لقائي به أو لقاءه بي في حد ذاته علامة تصلني أكثر بمكاني:

- هل تدرك مغزى أن تقطف ثمرة من شجرة فتؤمر أن – أو يتم التآمر عليك لكي، فالأمر والتآمر في لغتكم مصدرهما واحد – تطلعَ الشجرة لتثبِّتَ الثمرة مكانها؟ وحتى لو جئتَ بصمغ العالم كله لن تستطيع إلا إذا كنت تريد أن تفسد الثمرة وتجعلها تنفصل عن زمنها والفم الذي ينتظرها؟ لماذا لا تستطيع؟ لأن فما مفتوحا سيأكلها، لأن التزامن حصل بين شهوة الثمرة وشهوة الفم، لأن الثمرة تتوق إلى لمسات من طلع الشجرة وقطفها، من أحس بشوقها إليه فطلع ليلبي رغبتها ويبادلها شوقا بشوق. وهل ترضى ثمرةٌ أن تنقطف إلا

إذا كانت هي ذاتها راغبة في ذلك؟ قرأتَ بالتأكيد عن الحيوانات التي تحوِّل جسمها كله إلى أشواك والنباتات التي تفرز سُمًّا كي لا يقترب منها أحد أو يخرجها من مكانها وزمانها. الثمرة هي التي تنادي من يقطفها، لأنها ملَّتْ من شجرة ستجعلها بعد قليل تتعفن دون أن يفض شهوتها فم أو تغذي شهوتها يدٌ، شجرة تعفِّنُ فلذاتِ أغصانِها لأنها تختال بجمالها وهي مليئة بالثمر، لكنها لا تعرف أنها تختال بعفنها عندما تتعفن كل ثمارها. الشجر نوعان على الأقل: شجرٌ شخرٌ وشجرٌ شحزٌ. فهل ستقبل أية ثمرة أن تُثبَّت بصمغ؟ هي تشتاق لفم خُلق لها، ليد وقدم تسلقتا الشجرة وعاندتا أشواكها لتصل إليها، لتفكَّ شفرة شوقِها.

وقفتُ من جلستي مذهولا، لأنني وجدته يختلف تماما عن الصورة التي رسمها لنفسه في بداية اللقاء، وأدركت أن ذاكرته ليستْ عاجزة أو متجبِّرة أو خائنة كما بدتْ لي، كما أن كلامه ذاته التحم بكميات الغاز التي في أعصابي وجسمي

كله وجعل نظري يصفو كثيرا لدرجة أن أمورا كثيرة بدأت تتكشَّف لي في الميدان حولي وأصبحتُ أرى روحَ المكان تتنفس حولي وتمتزج بأنفاسي، وكأن الأنفاس ذاتها بدأت تتعرى وتتكشف لبعضها البعض ولي أنا شخصيا.

لم أقاطعه ولكنني شبكتُ يدي بيده كنوع من التقدير أو الإحساس بالفرح أو التعبير عن الامتنان للاكتشاف الذي تراءى لي أو على الأقل أوقد نار بصيرتي. ابتسم لحركتي وواصل كلامه:

- يا ولدي، هل تعرف أن أولَ قطرة دم أنبتتْ بذورَ الحلمِ، وأن وقفتكم هذه في الميدان ستجعل شجرته تغيِّر كيمياء الأشجار وتظلل كل هذه الأرض دون أن تحجب عنها شمسا أو تخفي عنها قمرا؟ وساعتها ستعرف يا ولدي لماذا أقسم رب العزة بالشمس والقمر ولماذا أقسم بالأشجار. يا ولدي إن أول من قَتَلَ قَتلَ الناسَ جميعا، ولكنه بعد أن قتل لم يعرف كيف يخبئ جريمته، لم يعرف كيف يحس: أيحس بالألم؟ أم يحس بالفرح؟

أيحس بالعذاب؟ أم يحس بالنعيم؟ حبٌّ الله يا ولدي ليس بتقديم القرابين ولا بالكلام. حب الله بتطهير القلب، بالعمل الصادق، بالتخلص من شهوة الظهور، بالانخراط في عمل أيادي الذين أنزلهم الله ليعمروا الأرض، وهذا العمل يا ولدي هو الزمن الذي إذا التقى بأرضكم سيخضرٌّ زمانكم ومكانكم. يا ولدي، هل تعرف أن آخرَ من يَقتل في أية لحظة حتى لو قتل بدم بارد سيتصارع صراعا غير متكافئ مع إحساسه بالضعف، إحساسِه بالخيانة، إحساسِه بأنه لاشيء، إلى أن يُسقط نفسه لأنه لم يعد يُدرك أن زمانه انفصل عن مكانه، أنه هو شخصيا صار عبئا على الزمان وعلى المكان، أنه ثمرة أصرَّت على البقاء في حضن شجرة تتقطَّع ألما، لأن أي شجرة لديها ذرة واحدة من الإحساس بالشجرية تدفع ثمارَها لأن ينفصلن عنها ويشققن طريقهن إلى لمسات وأفواه عشاقهن عسى أن تلتقي لحظاتهن بلحظات من طلعوا الشجر وقطفوهن. يا ولدي، لا تفرِّط في ثمن قطرة دم ولا تخرج من هذا

الميدان إلا بعد أن تفرد شجرةَ الحلمِ ظلالَها على كل هذه الأرض.

مرَّ بائع متجوِّل بأكواب الشاي، فاشتريتُ منه كوبا ومددته للزمن. ارتشف منه رشفة، لكنه عندما رفع نظره إلى الأفق ناولني الشاي على عَجَلٍ وقال:

- بعد إذنك يا ولدي. مكان كهذا لم أعايشه منذ ملايين الكيلومترات.

نظرتُ إليه مستغربا وسألته مباشرة:

- نحن نحسب الوقت بالساعات والأيام والسنين، وأنت تحسبه بالكيلومترات؟

ردَّ عليَّ بسرعة شديدة:

- يا ولدي، في البدء كان الزمان والمكان صنوين، كانا روحين عاشقتين، كانا عاشقا وعاشقا، معشوقا ومعشوقا، لا تُفَرِّقُ بينهما. كان المكان والزمان لحظة أو نقطة في بحر الزمن الأبدي. لكنني بعد هذا البدء

مباشرة – وهو بدء بمقاييس عالمكم كان أطول من مجموع أزمنتكم وأمكنتكم – كان عليَّ أن أجري ربما لأشهدَ على إعماركم، أو أسجِّلَ محاولات من يسعى لأن يمزجَ زمانه بمكانه ويعلوَ ليصيرَ سحابة تُسقط قطرةً في بحر الزمن الأبدي. فتركتُ مكان بدايتي، وها أنا ألهثُ دون أن أتوحَّد بمكان. يا ولدي، وقفتي معك أرجعتني إلى أول النبع ومبتدأ الحركة. لو كان بيدي لاخترتُ هذا المكان مبتدأ ومُستقَرًّا لي لأنني أحس بأنه قطرات وليس قطرة واحدة. لكنني عليَّ أن أجري، وأنا عجوز كما ترى، حتى يطلع عليكم نهار يبعد عنكم توجُّسات الليل.

أخذ مني كوب الشاي وارتشف منه رشفة أخيرة. أعطاني الكوبَ وأخذ يعدو في الأفق. ولكنه سرعان ما رجع إليَّ قائلا:

- لن أتأخر بالتأكيد. أحس بأن الدماء تجري الآن في عروقي. أرى سيزيف الآن يجري بالصخرة على

مطلع الجبل ولكنها لا تسقط منه عندما يصل إلى القمة، فها هو يرفعها فوق كتفيه ويلقي بها على من حكم عليه ويجلس ليضحك ساخرا. لكنني لا أعرف إن كان سيزيف تحرر من الصخرة أم هي التي تحررت منه أم أن الجبل ذاته صار ملكا لهما. هاتْ يا ولدي الشاي.

ارتشف رشفة وشمَّ نفسا عميقا من هواء الميدان بغازاته ورائحةِ الشجر الذي تفوح منه رائحة عطرية، ثم ودَّعني ووعدني بلقاء قريب.

عندما ارتشفتُ رشفة من الشاي، تداخلت الأوقاتُ أمام عيني كأن زمن الميدان يتصارع ويحاول أن يتشكل في صورة لافتة بالرغم من أنني لم أستطع أن أحدد قوام هذه الصورة بالضبط ولا شكلها، لكنها كانت صورة تجذبني. وأحسستُ فعلا كأنني في نهارٍ، وفوقي شجرةٌ لا أبصر لها أولا من آخر. كانت ثمارها رانية كأنها تدعوني لقطفها، فشربتُ الشاي جرعة واحدة وأخذتُ أعدو نحو طرف الميدان حيث السور الحديدي لأدق بالحجارة عليها حتى

نتمكن من أن نستنفرَ لحظاتنا ونصدَّ الثمارَ المعطوبة التي تتخفى في أفرع شجر أراها قادمة من آخر الشارع بالرغم من بعد المسافة بيني وبينها.

8-2 ديسمبر 2011

درب الشمس

لم يكن غيره يجلس بجواري. كنا نجلس على مقهى بدائي نوعا ما أعلى جبل كان أشبه بجبل المقطم الذي لم أره عن قرب إلا من خلال التليفزيون. ارتشف رشفة من كوب الشاي ونظر إليَّ نظرة سريعة، وعاد بعدها بثوانٍ ليطيل النظر كأنه يعرفني أو تعرَّف في ملامحي على شخص ما أو أنني ذكَّرته بشخص عزيز عليه. احتمالات كثيرة لا أستطيع حصرها أو تحديد أحدها بدقة ليكون تفسيرا أكثر احتمالا لنظرته. لكنني كنتُ متأكدا تماما – على الأقل في تلك اللحظة – أنني لم أره من قبل.

وفي كل الأحوال، كنا سويا على مقهى لا أعرف أنا على الأقل لماذا أنا موجود عليه وما الذي جعلني أغيِّر المقهى الذي أجلس عليه بِحَارَتِنَا. أقصد الحَارَةَ التي أعيش فيها وليستْ حارة تجمعني أنا وزميل المقهى هذا الذي ينظر إليَّ نظرة طويلة كأنه يقرأ ما في وجهي. وبالرغم من غرابة نظرته، كانت هذه النظرة تفتح بابَ لغةٍ ما بيننا.

أغمض عينيه عندما هبَّ هواء به غبار، أو بالأحرى لم يغلقهما تماما بل ضيَّقهما ووضع يده فوق كوب الشاي ليحميه من الغبار. لا أذكر من قبل أن الأتربة تحلِّق فوق أعالي الجبال، خاصة وأنه لم تكن هناك عاصفة ترابية، بل غبار خفيف كذلك الذي تلقيه الريح عندما تكون جالسا على مقهى في شارع مُترِب غير مرصوف جيدا. هذا على أساس أنني صعدتُ جبلا عاليا من قبل! ليستْ لديَ معلومة أكيدة، لكن إحساسا تسرَّب إليَّ وقال لي إن الأتربة بهذا الشكل لا تصعد إلى أعالي الجبال.

عندما تلاشى التراب فجأة كما هبَّ، رفع زميل المقهى الذي لا أعرف اسمه يده من على كوب الشاي ورشف رشفة أحسستُ بأنه يتلذذ بها، بالرغم من أني شعرتُ أيضا أن شايَه مُرٌّ، أو على الأقل قليلُ السكَّرِ. نظر إليَّ متسائلا بعد رشفته:

- من أين أنت؟

لم أستغرب سؤاله، فسؤاله سؤال معتاد عندما يلتقي شخصان في حي شعبي أو ينتظران أتوبيسا لا يجيء أو

يقفان في طابور خبز لا ينتهي أو يقفان أيضا في طابور إعلان عن وظيفة مراوغة. أشرت بيدي إلى يميني من فوق الجبل وقلت:

- أنا من هناك.

وبمجرد أن أنهيتُها بادرتُه:

- وأنت من أين؟

أشار بيده اليسرى في الاتجاه الآخر، قائلا:

- أنا من هناك.

أحسست بأن تماثل إجابتينا أنشأ قدرا من الألفة بيننا بالرغم من أنني كنت أدرك من داخلي بأن إجابتي وإجابته بلا معنى، خاصة وأن "هناك" من فوق جبل كهذا تشير إلى امتداد لا نهائي، يجمع المدن المتنافرة والصحراء والمطار والعشوائيات، كعالمٍ كامل به كل صنوف الحياة. يبدو أنه أدرك ما كنت أفكر فيه أو أحسُّه، فلقد قال مداعبا:

- إننا من نفس البلد إذن.

فضحكتُ وضحك.

أقبل صبي نحونا يبدو أنه هو الذي يدير شئون المقهى، فمنذ أن جلسنا لم يظهر أحد أمامنا، ولا أذكر على وجه الدقة من أحضر لنا كوبيِّ الشاي اللذين طلبناهما. لكن لابد لأي مقهى من أن يكون هناك أحدٌ يدير شئونه. وكل المقاهي الشعبية تقريبا بها صبي يُحضر الطلبات. لذلك كان الاحتمال الأساسي لظهور هذا الصبي أنه يعمل بالمقهى، وجاء ليلحَّ علينا في أن نطلب طلبات أخرى، وإلا سيطردنا من المقهى بالكامل بعد أن ندفع له حساب كوبيّ الشاي.

وجدت الصبي يمسك كوبا فارغا وينقرعليه بالملعقة نقرات خفيفة كأنه يتكلَّم بلغة ما غير مألوفة. لم يسألنا إن كنا نريد أن نطلب شيئا آخر أم لا، ولم يطالبنا بأن ندفع الحساب. لم أفهم رمز الكوب الفارغ، ولم أستطع أن أستحضر من ذاكرتي صبيَّ مقهى مشابها أو حركةً مشابهةً تفتح لي قاموسَ لغتِه. ظننتُه أخرسَ، لكنه كذَّب ظني عندما بادرنا سويا بالسؤال:

- كيف حال هناك؟

وأشار بيده نحو الاتجاه المواجه لنا مباشرة، لا إلى اليمين ولا إلى اليسار. عندما تبيَّن الذهول على وجهينا وأدرك حيرتنا، أخرج قطعتيْ حلوى من جيبه وأعطى كلا منا واحدة، مربِّتًا على كتفينا.

استغربتُ عندما وجدتُنِي أرى فيه صورة أبٍ، وزاد استغرابي عندما وجدتُ زميل المقهى ينهض ويقبِّل يده والطفلُ تتساقط من عينيه دمعات خفيفة كأنه يتمالك نفسه، أو لا يريد أن يظهر بمظهر الضعيف أمامنا، على الأقل كما تعلَّمتُ في تلك القرية البعيدة أن البكاء ضعف والدموع لا يجب أن تخرج من عيني طفل يراه أهل القرية رجلا بلا طفولة وكأنه وُلِدَ من بطن أمه رجلا. تراجع للوراء قليلا بعدما أعاد البسمة إلى وجهه وأخذ ينقر على الكوب من جديد. ووجدناه يتباعد عن المقهى وكأنه ينزل الجبل من الجهة الأخرى أو يتلاشى في الأفق كريحٍ لا تعرف السكوت ولا السكون.

التفتُّ إلى زميلي، وعندما أدرك أنني أنظر إليه التفتَ بوجهه نحو الناحية الأخرى لكي يخبِّئ دمعة تحتبس في عينه. حاولتُ أن أتذكَّر سبب توجُّهي إلى هذا المقهى، خاصة وأنني لا أذكر أنني جلستُ عليه أو صعدتُ هذا الجبل من قبل. أذكر أنني في قصة ما[3] كنتُ فيما يشبه الميدان، حولي خضرة، وحول دائرة الميدان أو حديقته الخضراء أو ما يسمُّونه بالصينية كانت السيارات تلف لتتفرَّق في جميع الاتجاهات، وكنت أسمع صوتا يهمس في أذني: يحدثني عن نبض المكان ونبض الزمان وعن بصمتي التي لابد أن أوقِّع بها على الطريق في الصباح لأُثبتَ أنني مررتُ من ذلك الميدان، أنني موجود على قيد الحياة، أنني صانع وبانٍ ولي عينان تريان لأَبْعَدَ من قدميْ. لا أدري لماذا بدأتُ أربط بين صوت ذلك الذي كان يناديني في الميدان ولا أراه وبين صوت ذاك الصبي الذي سمعتُ نقراته أكثر مما سمعتُ صوته، وصوته كان سؤالا. رأيته وهو يختفي وسمعت ذلك الصوت الذي حلَّ بي في الميدان إلى أن نهضتُ لأوقِّع على

---

[3] انظر قصة "كيف حالك؟" في هذه المجموعة.

درب الشمس. الفارق الوحيد أنني أكبر مني عندما كنت في الميدان بفارق خمس سنوات على الأقل ولا أدري لماذا شعرتُ بأن زميل المقهى هذا كبُر أيضا بالرغم من أنني على ما أظن لم أره من قبل.

هبَّ زميل المقهى واقفا وهو يضرب كفا بكفٍ، وبين الضربة والضربة يشير إلى الاتجاه الذي قال إنه منه، مصعوقا أو ساخطا أو ناقما أو غاضبا. لم أستطع أن أحدد انفعالاته، خاصة وأنني عندما نظرتُ إلى اتجاه إشارته كانت أدخنة كثيرة تتصاعد لتعلوَ فوقنا على البعد. أحسستُ بأن نار جهنم توقد في ذلك المكان، أو أن بركانا انفجر بالرغم من أنني أدرك تماما أن تلك المنطقة ليست منطقة براكين خامدة أو نشطة. كانت بالتأكيد نارا شاسعة.

انقلبت انفعالاته إلى الضحك بهستيرية وأخذ يشير إلى الاتجاه الذي ظننتُ أنني جئتُ منه، ووجدت نفس النار كأنها صورة كربونية منها. كانت محرقة هي الأخرى. أحسست بأنني أنا وهو الوحيدان الناجيان من تلك المحارق. استغربتُ

سبب لقائنا هنا أصلا، خاصة وأنني أذكر أنني لم أجئ إلى هنا من قبل. تداخلت الأمور عليَّ: هل أنا أجلس على المقهى فعلا؟ أم أنني نائم وأحلم بدرب الشمس. لكن التفاصيل كانت دقيقة جدا. لم أرَ من قبل حُلما بمثلها.

جربتُ أن أتذكر طريقي وأنا قادم. ووجدتُني أتذكر نفس التفاصيل اليومية للطرق والشوارع التي أمر بها. أذكر في الطريق أن أحدهم أعطاني خمسين جنيها وأشار بيده إلى أناس كثيرين وقال لي:

- اذهبْ وافرحْ معهم.

هممتُ أن أرفضها، لكنني تذكَّرتُ أنني خرجتُ بحثا عن عمل وأنني لم يكن في جيبي جنيه واحد. لم أترك أحدا ورائي، فلا أب لي الآن ولا أم. ولا أظن أن لي إخوة. كل ما أذكره أن أبي وأمي ماتا منذ زمن بعيد، بعد أن هاجرا من قريتنا بحثا عن لقمة عيش وحياة كريمة لي كما أخبراني، وأكدا لي بأن صعودي في الحياة فخرٌ لهما وأن إكمال تعليمي أمنية عزيزة عليهما. أذكر أيضا أنني جربت كل الأعمال

حتى أكمل تعليمي لأوقِّع ببصمتي على درب الشمس كما قال لي ذلك الصوت في الميدان منذ خمس سنوات على الأقل قبل تخرُّجي. قبلتُ الخمسين جنيها منه عندما تحسَّستُ جيبي ووجدته فارغا، لكنني عندما اقتربتُ من أولئك الذين يفرحون كما قال لي أحسستُ بالانقباض:

كان هناك مئات من الأشخاص المتنوعين يقفون ليشاهدوا منظرا لم تحتمله عيناي ولم أستطع أن أتصوَّر سببا مقنعا أو غير مقنع له. كانوا يهللون عندما ينط الدم ويلطِّخ ثيابهم أو عندما تتعالى الآهات من الأشخاص الذين تم تجريدهم من ملابسهم. كانت السياط ترتفع من أياد رسمية وتنهال على الأجساد بتلذُّذٍ وانتشاء. حاولتُ أن أصعد إلى المنصَّة لأمنع تلك الأيادي الرسمية أو أترجاها أو أستحلفها بما تعلَّمتْه. وبمجرد أن تقدمتْ خطوتي تنفيذا لفكرتي، أوقعني سوط على الأرض منذرا ومهدِّدًا. لا أدري لماذا شعرتُ أن حياتي ستكون ذات قيمة كبيرة في هذه الفترة التي بدأتُ أدرك أنها فاصلة. ولم تبخل عليَّ أقدامُ المشاهدين

ببعض الركلات وقدر من التشفِّي وأنا أسحب جسمي لأفلت من بينهم وأستطيعَ أن أتوصَّل إلى تفاصيلِ قيمةِ حياتي التي خطرت في بالي وأوحت لي بالانسحاب. ووجدتُ نفسي فوق الجبل.

اندهشتُ كثيرا وبدأتُ أشك في أن زميلي ذلك الذي يجلس بجواري صورةٌ في مرآةٍ أمامي: فقد وجدته يخرج خمسين جنيها جديدة مثل التي معي بالضبط ويطويها كقرطاس ثم يضعها في فمه كأنه يسحب نفسا من سيجارة، ثم فَرَدَهَا من جديد أمام عينيه وأشار إلى الجهة التي قال إنه جاء منها وهزَّ رأسه مؤيدا لي، كأنه يؤيدني على ما كنتُ أسترجعه أو كأن الذي حدث معه هو الذي حدث معي. لكنه أضاف قائلا:

- ذلك الرجل لم يقل لي "اذهب وافرحْ معهم"، بل قال لي: "خذ هذه السكين واضربْ بها كل من يقول لا". وكيف أضرب شخصا معاناته هي معاناتي، أحلامه هي أحلامي، أرضه هي أرضي والنيل إن جف سيجف

ضدنا سويا؟ ألقيتُ بالسكين في بالوعة صرف صحي ووجدتني أجلس على هذا المقهى.

بدأت نقرات ملعقة على كوب زجاجي تتسرَّب إلى آذاننا. فرحنا سويا وسلَّمنا على بعضنا بحرارة كأننا نهنئ أنفسنا على شيء ما. وعندما التفتنا حولنا باحثين عن مصدر الصوت، لم نرَ شيئا. لكن الصوت كان يقترب ويتشكَّل. وكنا نحس فيه توترا ما، غضبا ما. أحسستُ بالانقباض والارتجاف، ووجدتُ زميلي يمسك بيدي كأننا نتكاتف. لم يكن هناك مجال للتوهُّم والصوت اقترب كثيرا وظهر الكوب فجأة على المنضدة الواصلة بيننا. كان نفس الكوب أو أَشبه به وكانت الملعقة تواصل نقراتها وإن صارت أكثر حدة وأكثر غلظة، كأنها ستتحوَّل بعد ثوان إلى دوَّامة رياحٍ عاتيةٍ ستقتلعنا أو تلقي بنا من فوق الجبل. وفجأة ظهر صوت الصبي دون أن نراه:

- عجبا لكما! لم تستطيعا أن تقرآ شيئا، والصبر إذا زاد عن حده سيعصف بكما. لماذا لم توقِّعا ببصمتيكما على درب الشمس في هذا النهار الذي أوشك أن ينتصف؟

سكت الصوتُ، ونقرت الملعقةُ نقرةً كسرَت الكوبَ، ووجدتُني ووجدتُ زميلي نهرول هابطينِ من الجبل في المنتصف في نفس الاتجاه الذي أشار نحوه الصبي من قبل وسألنا: "كيف حال هناك؟"، خائفين أن يكون قد فات أوانُ توقيعنا ببصماتنا على درب أحسسنا من كلام الصبي ومن تذكُّرنا أنه ينتظرنا.

26-27 يوليو 2011

كيف حالك؟

أحسستُ بأن شخصا ما جاء وجلس بجانبي. يبدو أنني سمعته يلقي السلام. أحسستُ بحرارة جسمه تقترب من حرارتي. وشعرت بشعر جلدي يقف ترحيبا به أو احتراما له أو قشعريرة منه. نظرت إليه - حيث حدسْتُه - بعينين فيهما قدر من الشك وقدر من القلق، لكنني أحسستُ أن عينيه ثابتتان ومطمئنَّتان. رأيته يشي بيقين غير متجمّد ولمستُ شكِّي يزداد. فكرت أن أمد يدي لأتحسسه أو على الأقل أجد دليلا ماديا أو علميا على أنه بجواري. لكنني تذكَّرتُ أنني طلَّقت أسئلة العلم العرجاء وكفرت باللغة الأكاديمية الخرساء منذ زمن.

- أهلا!

قلتُها له وأنا ألتفتُ بجانبي، ثم نظرتُ أمامي سارحا ببصري كأنني أتأمل نقطة غير مرئية في الأفق البعيد تداعب أشعةَ الشمس الغاربة أو تحاول أن تستبقيها مع أن الوقت كان

ليلا وكان ضوء القمر يسري كالنسيم في سكينة الليل، ثم قلت له بعد تفكير طويل:

- كيف حالك؟

حاولتُ أن يخرج صوتي طبيعيا دافئا حميما كأنني أسأل شخصا يسري في دمي أو أدردش مع صديق حميم لم أقابله منذ أسبوع على مقهانا. أحسستُ كأن وجها تدوَّر وعيونا تشكَّلت والتفتتْ إليَّ، وقال:

- كيف حالك؟

عاودتني نزعة أكاديمية غبية عندما تذكَّرت أن من القواعد الأكاديمية الصارمة في الحوار ألا ترد على سؤال بسؤال، لكنني كتمتُ نَفَسَ هذه الأكاديميةِ وأضفت السؤال من جديد:

- كيف حالك؟

ووجدته يقول لي:

- كيف حالك؟

أحسست بأن هذا الحوار لو ظل هكذا لن ينتهي بالرغم من أنني كنتُ أحس بمتعة عظيمة بهذه الحميمية وبأن السؤال في تكراره يسأل عن ملمح جديد من ملامحي. كيف حالك الأولى تختلف عن حالك الثانية عن حالك الثالثة عن حالك الرابعة وهكذا. على الأقل حالي بين سؤال وآخر - أي إحساسي به بجانبي وإحساسي التالي بتزايد تواجده أو حضوره - يجعلني أدرك للسؤال مغزى جديدا. ومع ذلك توقَّفتُ عن طرح السؤال، وعندما سألني من جديد، قلت له:

- أنا بخير.

وبمجرد أن أجبتُ على السؤال اهتزَّ المكانُ بجانبي وكأن الكرسي الرخامي الذي كنت أجلس عليه في حديقة ميدان التحرير تحرَّك من مكانه أو انشق نصفين: نصف أجلس عليه ونصف تشكَّل رجلا وأخذ ينظر إليَّ باستغراب، ثم قهقه ساخرا:

- أتكذب عليَّ أنا؟!

شعرت بغضب، فقلت له على الفور:

- من أنت حتى تتهمني بالكذب؟

قال لي:

- أنا أنا.

ثم أتبع كلامه بسؤال:

- ومن أنت حتى تغضب هكذا؟

قلت له:

- أنا أنا.

وهنا ضحك ضحكة صافية وقطف وردة وعبث بها في أنفي وعينيّ قائلا لي:

- ألم أقل لك؟ انظرْ للجرس الموسيقي والتناغم الكوني بين "أنا أنا" و"أنا أنا"!"

أحسست بالرغبة في أن أهزَّ رأسي لأتأكد من أنني لم أصل إلى مرحلة الجنون أو أن أحدا بجانبي. هززت رأسي فوجدته يقول ضاحكا:

- حتى لو شججتَها بكل تلك الحجارة التي تثقل على رأسك وقلبك وروحك (مشيرا بيديه في جميع الاتجاهات) على هذه الأرض وفي هذه البلاد، لن أختفي من أمامك. أنا هنا. أنا حقيقة أبدية واقفة أمامك. أنا أنت وأنا هي وأنا روح هذا المكان الذي تجيء إليه كلما حانت لك فرصة المجيء. أنا روحه. أينما حللتَ وأينما ذهبتَ ستجدني.

أحسستُ بأن اللحظة أكبر مني وأنني لن أستطيع أن أجاريه أو أتوحَّدَ معه تماما. لكنني حاولت أن أسأله سؤالا عاديا حتى أستدرجه – إن استطعتُ – إلى منطقتي الخاصة أو أحوِّل لغته إلى لغة أقرب لي، فسألتُه:

- وكيف ستكون معي أينما ذهبتُ وأنت روح هذا المكان؟ هل ستترك هذا المكان ليموت وتذهب إلى مكان آخر وزمان آخر وروح أخرى أحل بها أنا في مكان وزمان غير هذا الزمان وهذا المكان؟

أحسست بدوري أن سؤالي بدأ يصير أكبر مني ومن نواياي ومن محاولاتي لأن أستدرجه إلى منطقتي. وجدته يقول لي بكل بساطة:

- ألستَ جزءا من هذا المكان الآن؟

- بلى.

- ألا تجيء إليه في أزمنة متفاوتة؟

- بلى.

- إذن أنت جزء من هذا المكان وجزء من زمانه الممتد. وبما أنني روحه فأنا معك.

- أهلا!!

قلتُها له وأنا أحاول أن أتصيَّد فكرة طارئة طرأتْ على بالي ملمِّحةً لي بمعرفة بعض الأشياء، فسألته دون أن أعطيه فرصة للتملُّص:

- قُلْ لي: لمن سيصير الحكم في ذلك الصراع المحتدم بين التوجُّهات؟

ضحك ضحكة طويلة، ثم صمت وهو يحدِّق فيَّ. ثم أشار إليَّ بأصابع كادت تُخرِج عينيَّ، قائلا:

- أنت جزء من المكان، أنت جزء من هذا الزمان، وعليك أيها الإنسان أن تكون فاعلا في الزمان وفي المكان. فبدونك سيمر الزمان كالغياب وسيتوقف نبضُ المكان عن دفق رسائله.

نظرتُ إليه نظرة تمزج بين الرضا والمكر كأنني أقول له:

- كنتُ وثقا من أنك ستقول ذلك ولن تخيِّب ظنِّي فيك.

لكنه نظر إليَّ نظرة تمزج بين المكر والغضب قائلا:

- وكنتُ واثقا من أن سؤالك التالي سيكون غبيا جدا.

حككتُ شعر رأسي محاولا أن أجد تفسيرا لكلامه أو مبررا للطريقة التي عرف بها ما سأسأله عنه. وعندما لم أجد شيئا، عجَّلتُ بالسؤال:

ـ هل تستطيع أن تجد لي عقد عمل عند أي روح من أرواح الأماكن أصدقائك؟

انقلب غضبه السابق إلى حدة في كلامه، وقال لي:

ـ أنت لم تحاول بما فيه الكفاية لأن تصل إلى نبض هذه الأرض. وإذا وصلت إليها لن تكون ساعتها في حاجة إلى أي عقد عمل خارجها.

فقلت له محاولا أن أتودَّد إليه:

ـ لا تغضب يا صديقي. كيف يتخلَّص المرء من جهله إذا لم يسأل أسئلة قد تبدو غبية؟

لا أدري لماذا أحسستُ أنني يجب أن أسأله سؤالا ثالثا، وكأنني تذكرتُ مشاهد من بعض الأفلام القديمة التي تذكر أن للمرء ثلاثة مطالب فقط يطلبها من الجنِّي إذا ظهر له. وبما أنني أدرك أن هذا الواقف قبالتي لن يحقق لي أية مطالب عملية أو مادية، حاولتُ أن أجد سؤالا مناسبا أطرحه عليه ليجيب عليه، فسألته:

- ما الذي أفشل علاقة حبي القديمة؟

وما إن طرحتُ سؤالي حتى وجدته يتقدَّم نحوي وأخذ يربِّت عليَّ وبدأتُ في الانهيار. لكنني تمسكت بالرخام كي لا أقع واكتفيت بيده تلتف فوق كتفي. أخذ يربِّت عليَّ، قائلا في مواساة:

- أَنْتَ مَنْ أَفْشَلْتَهَا.

بدأت أشك فيه وفي كل شيء يقوله، فها هو يتسلل إلى جلستي ويتودد إليَّ بالإبهار لكي يجعلني أقتنع بشيء لم يكن أصلا. أحسستُ بأنه الوهم وأنه الشيطان وأنه يحاول أن يدمِّر كل الأسس والافتراضات التي بنيتُ عليها تفكيرا لاحقا. فقلت له غاضبا:

- كيف يا أبا الْعُرِّيف؟

سحب يده من على كتفي ووضع يديه حول وجهي كأنه يثبِّت بؤبؤ عينيَّ على بؤبؤ عينيه وكأنه يريد أن يوصِّل كابل بيانات لينقل معلومات فيما بيننا، وقال:

- فتِّش داخلك.

وأخذ يحدِّق فيَّ. أحسست بغشاوة وأحسست بأن شيئا يتسلَّل داخلي. وعندما فتحت عينيَّ لم أجده، لكنني أحسست بكيمياء جديدة تسري في نبضي، فملتُ على الأرض. شممتُ الوردة التي قطفها من قبل ووضعتها في جيبي وانصرفت قبل أن تبدأ خطوات النهار بضجيجها الصاخب حتى أوقِّعَ بخطوتي في دفتر هذه الأرض وهذا النهار وألحق بدرب الشمس.

9 أبريل 2010

أولادُ التينِ

- ارحمني.

- اخرجْ مني إن كان لا يعجبكَ وجودُكَ.

- اسكتا وإلا انفجرتُ وانفجرتما معي.

- من أنت؟

- أنا الذي أحرّك كل واحد منكم لبعض الوقت كي لا انكفئَ.

- من ينكفئُ ينكفئُ على نفسه.

- ههههههههههههههههههههههه لولا ضحكتي هذه لكنتم...

- من أنتَ؟

- العبوا في ضجيجٍ وإلا سكتُّ.

- اسكتْ.

- لولا ثرثرتي يا أصدقائي الأغبياء...

- أنحنُ أغبياء؟!

- أتكلمُّ عن نفسي يا أخي.

- حلوةٌ "أخي" هذه.

- طبعا حلوة. لولا جبروتي لكنا انفجرنا جميعا.

- سأبلّغ عنك مكافحة الإرهابِ.

- ههههههههههههههه سيعتقلونك في جسدي ولن يتمكنوا مني هههههه. ألم أقل لك إنك غبي؟

- إلى متى ستظلون تتناقرون هكذا؟

- قل له. يظن أن له جسدا يمكّنه من الانفصالِ.

- وأظنُّ أنني يمكنني أن أظلَّ بعد فناء جسدِكم.

- امشَ يالا.

- الانتحارُ حرام شرعا. هههههههههههههههههه

- سأنتحرُ أنا.

- أنا لا أريد أن أنتحر. أرنِي كيف تنتحر يا فالح!

- يُفترضُ أن يظهر الآن راوٍ غير مشاركٍ ويطردنا جميعا.

- ههههههههههههههههههههههه أحدنا لم يشارك. ألا تراه يجلس صامتا في زاوية المرآة؟

- يا بني، أريد أن أكمل مشاهدة الفيلم.

- وأنا أريد أن أراجع الكتاب.

- وأنا أريد أن أستمع إلى أغنية "يا عزيز عيني".

- وأنا منذ أمس أريد أن أسمع أغنية "أدينا بنتعلم أدينا.. نضحك ع الأيام وماضينا"

- أتريد أن تضحك علينا يا جبان؟

- أنت هكذا عقَّدت القارئ في حياته.

- عقَّدته أم أكرهتَه؟

- ههههههههههههههههههههههه

- عيِّلٌ من ينساق وراءكم.

- وعيِّل من يخفّف جبروته معكم هههههههههههههههههه

- أهلا بكم جميعا.

- من أنت؟

- أنا الراوي غير المشارك.

- كيف تكون غير مشارك وتظهر؟

- أنا مشارك بكم. فكلكم داخلي يا أولاد التين.

- حلوة "أولاد التين" هذه.

- أنا أول مرة أسمعها.

- هههههههههههه وأنا أول مرة أقولها.

11 أغسطس 2014

نافذةٌ صباحيَّةٌ

- من أين أنت؟
- (أنظر إلى الصباح الوليد مستغربا) منذ متى نسأل هذه الأسئلة في الصباح أيها الشعاع؟!
- ومن أوقف الأسئلة؟
- من يستطيع أن يوقفها؟
- أنا شعاعٌ ومن حقّي أن أسألك؟
- (ضاحكا) وأنا إنسان ومن حقّي ألا أتكلّم إلا في وجود محامٍ.
- (ضاحكا بنبرة قد تبدو ساخرة وقد تبدو صافية) أُشبِّه عليكَ.
- (ضاحكا بصوت مرتفع) لقد أشرقتَ عليّ بالأمس في نفس المكان.
- (مستنكرا) أمجنونٌ أنت؟!

- (بنبرة فيها نوع من الاستجواب والاتهام) أمجنون من يقول الحقيقة؟

- أي حقيقة غيري وغيرك في هذا الصباح هنا؟

- (بجدية بها شبه ابتسامة) انظرْ. لم أنم منذ أمس. وبدأتُ في كتابة ما خططتُ له فوجدتُ نفسي أخرج منه وأكتب شيئا آخر.

- (بنظرة استحسان) جميل جدا. ها أنت تقترب من الحقيقة؟

- (ضاحكا ضحكة متقطّعة) لم أنم يعني لستُ صافيا لكلام عميق يجعلني أغوص فيه فأفقد حاجتي للنوم.

- ولماذا تنام؟

- أليس النوم جزءا من الحقيقة؟

- ومن أنكر حقيقته؟ هي فقط حقيقة مادية.

- يبدو أنك تلمّح لشيء!

- أنا لا ألمّحُ. فلغتي لغة ظاهرة لعينكَ.

- عيني التي تريد أن تنام أم عيني التي تريد أن تواصل الكتابة؟

- عينك التي تراني الآن وتنكرني.

- لم أنكركَ.

- كيف تقول إذن إنك رأيتني بالأمس في نفس المكان؟

- وما التناقض بين قولي وعدم إنكارك؟

- لأنك لم ترني بالأمس.

- (بإنكار واستغراب وكأنه يشكك في وجود الشعاع) صباح الصباح!!

- وصباح المساء أيضا.

- (مستغربا) صباح المساء!

- نعم. أقول لك الآن أين تقابلنا.

- هل تقابلنا في صباح المساء؟ (ضاحكا ضحكة طويلة).

- أتذكرُ "شجرة الميدان[4]"؟

- الضنى غالي يا سيادة الشعاع.

- ولماذا عندما رأيتَ عنوانَها بالأمس تجاوزتَها سريعا كأنك تخشاها؟

- كان ذلك مساءَ الأمس!!

- وما الاستغراب في ذلك؟

- أنت شعاع!!!

- أليس الشعاعُ مخلوقا هو الآخر؟

- نعم مخلوق. (صمت) ولكنه مخلوق بالنهار (يضحك ضحكة تملأ وجهه).

- ومخلوق بالليل أيضا أيها.. (صمت) أيها الإنـ... سان.

- ولماذا صَمَتَّ بعد حرف النون ولم تصمت بعد حرف السين؟

- هل أنتَ إنسٌ وإنسٌ؟!

[4] انظر قصة "شجرة الميدان" في هذه المجموعة أعلاه.

- وهل أنا إنسان "فيه إنَّ"؟

- ها أنت تقترب من مكان لقائنا.

- وما علاقة "فيه إنَّ" بمكان لقائنا؟

- ها أنت تسلّم بأننا التقينا في مكان آخر.

- (ضاحكا) أنا لن أسلّم ولن أستسلم.

- (ضاحكا) وأنا لن أئنَّ ولنْ أُؤَنِّنَ.

- (ضاحكا) أنِّنْنِي يا معلّم.

- أنا لا أزرع الأنين ولا الشكَّ ولا التقنين ولا اليقين.

- صباح الصباااااااااااااااااااااح. لم أنم. قلتُ لك!!!

- صباح مساء الخيييييييييييييير.

- هل انتهى الكلام؟

- قل: هل ابتدأ؟

- كلامُك بدايته انتهاء إذا استمرّ هكذا.

- من ناحية الاستمرار.. (صمت) قد يستمر.

- كيف يستمرّ وهو يدخل في طريق مسدود؟!

- أنت الذي تراه مسدودا. فكِّرْ قليلا. ألا تذكر أين التقينا؟ ألا تذكر "فيه إنَّ"؟ ألا تذكر "شجرة الميدان"؟ سأسهِّلُ عليك الأمرَ أكثر: ناولْني كوبَ الشاي هذا. ألا تشعرُ بإرهاقِ أنفاسي؟ ألا تذكر تلك الجلسةَ التي لم أجلسها منذ سنوات وربما منذ قرون؟

- نعم!! أتنتحلُ شخصيةً أيضا؟

- أنتحلُ شخصيَّتَكَ أنت؟ لم تكن مُدَّعيًا ولا متعاليا هكذا؟ ما الذي غيَّرَكَ؟

- أنا بلا شخصية (صمت) واحدة. (ضاحكا) أنا عدة شخصيات.

- يا لبختك! أنا بشخصية واحدة. (متلفتا حوله) وأحيانا أسرق لي شخصيات بالجلوس مع شخص مثلك للحظات.

- لماذا تتلفتُ حولك؟

- لا تشغل بالك. أنا أداهم نفسي. لا تداهمني أنت أيضا بأسئلتك!
- (لنفسه) ماذا يعني بـ يداهم نفسه ويداهمني؟
- سمعتُكَ أيها الخبيث.
- سمعتَ ماذا؟
- لا يهم. ذاكرتُك بليدة جدا.
- ربما لا أستطيع إنكار ذلك. فذاكرتي لا تتوهج إلا أثناء الكتابة.
- (ضاحكا ضحكة طويلة تجعله يُرجع كوب الشاي إلى المنضدة) وماذا تفعل الآن؟
- (ضاحكا) أتكلم معك.
- (مقلِّدا نبرة توبيخ) أنت تكتب الآن يا صديقي.
- أكتب وصديقك؟
- جميلٌ هذا الشاي. ذكَّرني بالشاي الذي شربتُه معك من قبل.

- لستُ فائقًا لك.

- وكيف تصرِّف فائقا عربيا يا فالح؟!

- الفوق العلو والكسر، أي لستُ مستعدا الآن لأعلو على نومي أو كسلي أو أكسرهما وأصعد إلى مقام كلامك المحيِّر.

- أنت فائقٌ إذن؟

- قلتُ لك: لستُ.

- هات سندويتشا من هذا الفول.

- أتأكل أيضا؟ أظن أنك تشرب الشاي فقط.

- (مُستطعِمًا) جميل. ذكَّرني بسندوتشات "أبو يوسف".

- أتعرف "أبو يوسف" أيضا!!

- أعرفه من بعيد. محلُّه في شارع ضيق. فأقف في الفسحة ما بين الصيدلية وعصّارة القصب وأهمس في أذن أحد أستبشر به ليحضر لي سندويتشا.

- "أجل يا سيدي[5]" (يقولها ضاحكا).
- أستهبطُ إلى السخرية؟
- أغضبتَ؟
- لو كنتُ سأغضب، ما كنتُ توقفتُ عندكَ، قلتُ عندما رأيتُكَ من النافذة: فلأطمئنّ على "شجرة الميدان".
- ومن أعلمكَ بهذه الشجرة؟
- ألم نكتبها سويًّا؟
- من الذي كتبَ؟ أتنتحل شخصيته؟
- شخصية من؟
- الزمن.
- (يضحك عاليا وكأنه لا يستطيع أن يتوقف عن الضحك)
- لماذا تضحك يا سيدي؟
- أنت سيدي ولستُ أنا سيدك.

---

[5] عبارة من فيلم "اللمبي 8 جيجا".

- أَعُدْنَا إلى الألغاز؟

- ليس لغزا. (متقمِّصًا شخصية مَنْ أمامه) أُقسمُ بالله لم يكن هناك لغزٌ[6].

- (ضاحكا باستغراب) أقرأتَ "محاورات أوديب" أيضا؟!

- وهل تظن نفسك القارئ والكاتب الوحيد؟

- لكنّ هذه الجملة وردتْ على لسان شخصية من شخصياتي.

- اعتبرني شخصية من شخصياتك. ألم أكتب معك تلك الشجرة؟

- لكنه كان الزمن؟

- وما الشعاع والزمن إلا جزء من شيء واحد يا صديقي... (صمت) الذَّكيّ.

- وكيف إذن لم ألتقيك أمس في نفس المكان؟!!

---

[6] من قصتي "محاورات أوديب" المنشورة في مجموعتي "أولاد الحرام". وها هو رابط المجموعة للتحميل:
http://www.mediafire.com/?fjs1bbc0ri51npl

- هذه مشكلتك. يُفتَرَض أنك تعرَّفتَ عليَّ في تلك الشجرة.

- وما مشكلتي هذه؟

- إنك تنظر إلى كل الأشعة على أنها بلا تمايُز؟

- لو نظرنا إلى كل شعاع على أنه شجرة سنُجَنُّ.

- ولماذا تفترض الجنون؟ وما معنى الجنون أصلا؟ هل كل من يتكلم لغة أخرى مجنون؟

- يا عم، حرام عليك. أعود إلى بدايتك معي: منذ متى نسأل هذه الأسئلة ونحن نستسلم للنوم؟

- وسأعود إلى البداية أيضا. (ضاحكا) من أين أنت؟

- أنا من جميع الأماكن التي مرّت بي، لكنني أصطفي مكانا واحدا أحيانا.

- ها أنت تعود إلى شجرة الميدان.

- وها أنا أعود معك إلى ذلك المكان في تلك الشجرة بعد هذه الشهور والسنوات.

- صباحُك إشراقٌ

- بل صباحُنا أمكنة تقيم فينا.

- وإذا أقمتَ ستتوقف.

- (ضاحكا) لن أتوقف. سأقفز فوق الأمكنة التي كان عليّ أن أمرّ عليها وبها أثناء كلامنا.

- كيف؟

- سيظنون أن السماء فيها سُحب تمنعني من الظهور.

- أليس هذا تقصيرا؟

- القلب وما يريد يا صديقي.

- يبدو أنك شُعاع مصريّ.

- ألتقيك في مكان آخر يعيدنا إلى نفس المكان. سلام يا صديقي.

- (مندهشا ومتفاجئا) سلام (يقولها في انكسار).

25 مارس 2015

عن المؤلف

ولد جمال محمد عبد الرؤوف محمد الجزيري في 2 أغسطس 1973 بجهينة، محافظة سوهاج، مصر. كاتب قصة وشاعر وروائي ومترجم وكاتب مسرح وناقد ودكتور جامعي. بدأ مشواره الأدبي في عام 1991. تخرج في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بسوهاج 1995. حصل على الماجستير من قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة 1998عن رسالة بعنوان "تحولات المنظور في شعر روى فولر1936 – 1961"، ثم على الدكتوراه من قسم اللغة الإنجليزية بآداب عين شمس عام 2002 عن رسالة بعنوان "جوانب السرد في شعر روجر ماكجوف 1967 – 1987". يعمل منذ عام 1999 بقسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية بالسويس، جامعة السويس بمصر وانتقل بعدها ليعمل بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في نفس الجامعة، ويعمل حاليا بقسم اللغات والترجمة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة بالمدينة المنورة. وقام في يناير 2014 بتأسيس مجموعة سنا الومضة على الفيسبوك بالاشتراك مع الأستاذ عصام الشريف (مصر) والأستاذ عباس طمبل (السودان)، وهي مجموعة تعني بشئون القصة الومضة نظريا وتطبيقيا ونقدا وإبداعا. كما قام في شهر مايو 2014 بتأسيس دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني.

الاسم بالكامل: جمال محمد عبد الرؤوف محمد

اسم الشهرة والنشر: جمال الجزيري

الجنسية: مصري

المهنة: دكتور جامعي، تخصص الأدب الإنجليزي

البريد الإلكتروني: elgezeery@gmail.com

جـوائـز

* المركز الأول في القصة القصيرة من جامعة جنوب الوادي 1995
* المركز الثالث في القصة القصيرة، المسابقة المركزية لهيئة قصور الثقافة 1996 – 1997 عن مجموعة بعنوان **أساطير**.

فهرس